

عبد الكريم الخطيب

الدعاء .. المستجاب

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الأخ الصديق الأستاذ محمود أبوزيد عثمان .. المحامى
لقد كان موقفك الكريم النبيل إلى جانبى فى غمرة المحنة ؛ هو الزاد الطيب الذى أمسك علىّ إيمانى بالخير وأرانى جوانب السمو والعظمة فى الإنسان ..

وإنه لايشكر الله من لايشكر الناس ..

فإليك أهدى هذا الكتاب . الذى أرجو أن يكون عملا مبرورا مقبولا عند الله .. لك ثوابه .. تطيب به حياتك فى الدنيا ، ويثقل به ميزانك فى الآخرة .. وعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، والله عنده حسن الثواب ؟

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في ساعة العسرة . . وعند وقوع المكاره

وفي لحظات الضيق . . وعند تَجهُّم الزمان

وفي قسوة المرض . . وعند تزاحم العلل

وفي صَكة اليأس . . وعند انقطاع الأمل

وفي كمدة الحزن . . . وعندما يشتد الكرب . . وتبلغ القلوب الحناجر !

هنالك تتعالى الصيحات . . وتنطلق الزفرات

وتتردد الدعوات !

وفي مواقف الشكر . . وعند تجدد النعم

وفي الاستكثار من الخير . . وعند الاستزادة من الفضل

وفي نشدان الصحة . . وعند طلب العافية

وفي ابتغاء الطمأنينة . . وعند التماس الغلب

وفي نشوة النصر . . وعند هِزة الظفر . . ورنّة الفرح

هنالك تخشع القلوب ضارعة، وتَخبِت النفوس شاكرة

وتُزجى القربات .. وتقام الصلوات !

* * *

فى هذه المواقف ، وفى تلك المشاهد ، وفى أحوال أخرى كثيرة غير هذه وهذه يجد المرء نفسه موصولا بقوة أخرى ، يمد إليها بصره ، ويشد إليها عزمه ، ويرفع إليها صلاته ودعاءه ، ويزجى لها حمده وثناءه . . وهيهات أن يكون فى الناس إنسان يعيش فى فراغ ، منقطعا عن تلك القوة التى يأنس إليها فى وحشته ، ويستصرخ بها فى شدته ، ويفزع إليها فى مخاوفه ، ويشركها فى مسرته وفرحته !!

هذه الأحاسيس الإنسانية فى حالات اليسر والعسر ، وفى أوقات الرخاء والشدة ، وفى ساعات الرجاء واليأس — هى التى تَجَسَّمت فى صدور الناس منذ الأزل فأيقظت فيهم غريزة التدين ، وحركت العقل الإنسانى إلى البحث عن المعبود الذى يَدِين له الناس بالولاء ، ويتجهون إليه بالصلوات والقربات .

وقد تفرقت بالناس فى هذا مذاهب النظر والرأى . . ومن ثَمَّ اختلفت فى عقولهم التصورات والمفاهيم لذات المعبود وصفاته . . فكان عند بعض الناس قوة مادية ظاهرة . . كالنار . والحيوان ، والإنسان ! . . وتصوره بعض الناس معنى من معانى القوة . . فى الجمال ، أو الخير ، أو الشر ، أو النور أو الظلام ، ثم تجسمت هذه المعانى فى الخواطر فخرجت إلى حيز المادة ؛ على هيئة الأصنام

والأنداد والتماثيل .. تُنحت من الحجر ، وتقام عليها الهياكل والمعابد ، ثم تصبح مفزع الناس إن فزعوا ، ورجاءهم إن رجوا ، ومُصلاهم إن عبدوا وصلوا ! .. ثم مع امتداد الزمن شيئا فشيئا صارت تلك الأحجار آلهة تعبد لذاتها ، وتقدم لها القرابين والصلوات ! .

ثم كانت صيحات الرسل فى تحرير العقل الإنسانى من هذا السخف الوضيع ، والارتفاع به من هذا الإذلال المهين لإنسانيته وكرامته ، فأشرقت القلوب بنور التوحيد ، وتحررت العقول من ضلال الجهل والخبال ، وتعرفت إلى المعبود الحق الذى يجب أن يُدعى ، والإله الواحد الذى ينبغى أن يعبد !

* * *

والإسلام دين التوحيد الخالص .. التوحيد المُصَفّى من دخائل الشرك ووساوسه ، فالله .. إله واحد .. فرد ، صمد ، « لا تُدركه الأبصارُ ، وهو يدرك الأبصارَ وهو اللطيف الخبير » ، « له الخلق والأمر .. تبارك الله رب العالمين .. » « لا تأخذه سِنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض .. » « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » !

فالمسلم — فى شريعة الإسلام — هو من عرف الله على تلك

العقيدة ، والعابد الحق من عبده فى ظل هـــذا الإيمان .

* * *

والمسلم حين يوجه وجهه إلى الله ضارعا ، وحين يمد إليه يده داعيا . . فذلك عبادة .. وصلاة . . ودعاء ! !

فالصلاة عبادة والدعاء عبادة . .

والصلاة دعاء ، والدعاء صلاة .. كلها تمجيد لله ، وتقديس له ، وإقرار بربوبيّته ، وتسبيح بحمده !

وقد وَهِمَ بعض الناس ، بل كثير من النـاس فحسبوا الدعاء تعاويذ تردد ، ورُقىً تمضع ، لا يرجى منها إلا ما يرجى من التعاويذ والرقى من دفع ضر أو جلب خير !

وحقيقة الدعاء غير هذا .. بل على النقيض من هذا . إن الدعاء عبادة خالصة ، وصلاة ضارعة خاشعة قبل أن يكون سبيلا إلى مطلب من مطالب الحياة ، أو تعويذة ليُجلب بها النفع ، ويُدفع بها الضُـرّ . .

وقد ورد فى الأثر أن « الدعاء مُخُّ العبادة » فكيف نذهب بالدعاء غير هذا المذهب ؟ وكيف نحيله كلمات جافة ، وعبارات مضطربة ملتوية ، لا تَنْدَى بعاطفة ولا تتصل بوجدان !

ويقغا هذا البحث « فى الدعاء » أن يكشف عن حقيقته ، وأن

يبين عن مكانته بين العبادات ، ليكون فى ذلك تبصرة لمستبصر ، وهدى لمهتد ، ونفع لمن شاء أن ينتفع « إن فى ذلك لذِكرَى لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد » .

وعلى الله قصد السبيل ، ومنه الهداية والتوفيق ؟

المؤلف

القاهرة :

جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠

ديسمبر سنة ١٩٦٠

الفصل الأول

حقيقة الدعاء — الدعاء والعبادة — متى ينفصل الدعاء عن العبادة — ثواب الدعاء

١ — حقيقة الدعاء : يظن كثير من الناس أن موقف الدعاء حالة عارضة يؤديها المرء كما يؤدى صفقة من صفقات التجارة . . فهو عنده بيع وشراء ، وأخذ وعطاء . . وما عليه إلا أن يحرك شفتيه بكلمات ليكون — فى ظنه — أنه أدى الثمن لما يطلب من الله من أمور الدنيا والآخرة . . وأنه على قدر ما يَعُدُّ من كلمات بقدر ما ينال من عطاء !

وأكثر الدعاء يقع على تلك الصورة المادية الهزيلة . . كلمات ثقيلة . . باردة . . تتحرك بها الألسنة وتتلمظ بها الشِّفاه ، لا تتصل بقلب المرء أو عقله ، ولا تخالط شيئا من وجدانه وحسّه فلا تستدفىء بوهج الضمير ، ولا تَمَسُّ شيئا من حرارة الشعور . . وهيهات أن يكون لمثل هذه الكلمات ثمرة تُرجى ، أو خير يرتقب . . إن الموات لا يعطى شيئا ، وإنها لكلمات ولدت فى يد الموت قبل أن تعرف طعم الحياة .. إنها أشبه بالأجنّة تلفظها الأرحام فى الأيام الأولى لحملها . . خلقاً شائهة ، لاحس فيها ولا حياة !

والدعاء فى حقيقة خَلْقٌ سَوِىّ الصورة مكتمل التكوين، فيه دفء القلب، وفيه حياة الروح، وفيه قوة الإيمان وفيه انطلاق الأمل والرجاء!

إن الدعاء - حين يَصْدُق، وحين ينطلق من قلب سليم مؤمن - يكون أشبه بالشَّرر الكهربىّ، فيه وهج، وفيه إشراق، ينطلق فى غير انحراف إلى مصدر القبول، ومورد الاستجابة.. تتفتح له أبواب السماء كما تتفتح للعمل الطيب المبرور!

٢- الدعاء والعبادة:

إن الدعاء عبادة كاملة، لها كل ما للعبادات من شروط وأركان لا تتم إلا بها، ولا تقوم إلا عليها.

ذلك أن موقف الدعاء موقف اتجاه إلى الله، وتضرع إليه، واستغاثة به. دفعاً لمكروه، أو استجلاباً لخير، أو حمدا على نعمه، أو رضًى بقضاء!

ولا شك أن الإنسان فى هذا الموقف يكون فى حال نفسى تغلب عليه فيه عاطفة التدين التى يصحبها تنبه الوجدان ويقظة الضمير.. وتلك أصح الأحوال وأحسنها للتعرف على الله والاتصال به، إذا أحسن الإنسان فَهْمها، وعرف قَدْرها.

ومن هنا كان الدعاء محسوبا فى العبادات بل فى الصميم منها وقد ورد الحديث الشريف أن «الدعاء مخ العبادة».. وليست العبادة

عبادة حتى يهيج لها الشعور، ويخفق بها القلب وتسكن لها الجوارح وليس شيء كمواقف الدعاء — إذا جاءت على وجهها — فى خلق هذه المشاعر وخلعها على الواقف موقف الدعاء!

ولهذا عبر القرآن الكريم عن الدعاء بلفظ الصلاة: إشعاراً بأن للدعاء ما للصلاة من استحضار القلب، واستجماع النفس، وخلوص النية.. يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم»(1) والصلاة هنا معناها الدعاء إذ كان النبي ﷺ يتقبل الزكاة من أربابها ويدعو لهم.. وكان من حجة مانعى الزكاة بعد وفاة الرسول فى أول خلافة أبى بكر، أن الزكاة إنما كانت تؤدّى للرسول فى حال حياته، وأنه فى مقابل ذلك كان يدعو لأصحابها، أما وقد مات الرسول، ولا دعاء، فلا زكاة!.. وقد حاجّهم أبو بكر بأن الزكاة فرض يجب أن يؤدّى، وأن دعاء الرسول كان فضلا من فضله، وعاطفة كريمة من شريف عواطفه.. فليس بين الزكاة وبين دعاء الرسول صلة كتلك التى بين العلة والمعلول. وإنما هى صلة أشبه بالصلة التى بين الدائن والمدين عند أداء الدين، فإذا أحسن المدين أداء دينه وكان فى نفس الدائن شيء من السماحة وكرم الخلق؛ شكر للدائن حسن أدائه ودعا له.. وذلك ما كان يفعله الرسول الكريم مع كل من عمل عملا فأتمه وأحسنه، وكذلك كان

(1) سورة التوبة ١٠٣

شأنه صلوات الله وسلامه عليـــه مع من يُقدِّمون الزكاة إليه ولا ينتظرون حضور جُبَاتها والعاملين عليها .. فهم بهذا قد أدّوا الفريضة وأحسنوا أداءها . فكان لهم من الرسول الكريم صلاة ودعاء !

هذا وقد ورد فى مواضع كثيرة من الكتاب الكريم ذكر الصلاة « بمعنى الدعاء .. يقول سبحانه وتعالى : إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليما »[1] ويقول جلَّ شأنه « هو الذى يصلى عليكم وملائكتُه ليخرجكم من من الظلمات إلى النور »[2] فالصلاة فى هذه المواضع معناها الدعاء . ومن ثَمَّ حُسب الدعاء عبادة ، وعُدَّ صلاة من الصلوات !

يقول النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « إن الدعاء هو العبادة » .. ويقول : « الدعاء مُخُّ العبادة » :

وقد ذكر ابن القيم فى تفسيره المسمى « التفسير القيم » شرحا وافياً للمعنى الجامع أو المفرِّق بين الدعاء والعبادة .. وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : « ادعوا ربكم تضرّعاً وخُفْيَة إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا فى البعض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفاً وطمعاً . إن رحمة الله قريب من المحسنين » يقول القيم :

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعى الدعا ، دعاء العبادة ، ودعاء المسألة .. فالدعاء فى القرآن يراد به هذا تارة ، وهذا تارة ، ويراد به مجموعها وهما متلازمان .

---

(١) سورة الأحزاب : (٥٦)   (٢) سورة الأحزاب (٤٣)

فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعى ، وطلب كشف مايضره أو دفعه ، ومن يملك الضر والنفع فإنه المعبود حقاً ، والمعبود لابد أن يكون مالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على مَنْ عبد مِن دونه مالا يملك ضراً ولا نفعاً ، وذلك كثير فى القرآن كقوله تعالى : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم » وقوله تعالى : « ولا تدْعُ من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك » وقوله تعالى : « قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضَرًّا ولا نفعا » . . فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر .

وعلى هذا قوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » يتناول نوعى الدعاء ، وبكلٍّ فُسِّرت الآية : قيل : أعطيه : إذا سألني ، وقيل : أثِيبه إذا عبدنى ، والقولان متلازمان . . .

ومن ذلك قوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجبْ لكم » فالدعاء يتضمن النوعين — دعاء العبادة ودعاء المسألة . وهذا فى دعاء العبادة أظهر ، ولهذا عقبه بقوله : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين[1] . . »

٣ — متى ينفصل الدعاء عن معنى العبادة :

ليس كل دعاء عبادة ، ولا صلاة ، فالدعاء الذى له حكم العبادة وصفة الدعاء هو الذى يبرز فيه معْنى العبودية لله ،

(١) التفسير القيم : ٩ ٥ .

والتمجيد للخالق ، واستحضار صفات الكمال لذاته . . من عظمة وقدرة ، ورحمة ، وإحسان ، وغيرها من صفات الكمال . .

هنا يكون الإنسان فى أروع مظاهر العبادة وأكملها . . إذ ليست العبادة الخالصة شيئاً غير هذا التخشع والتمجيد لله رب العالمين .

فإذا خلت نفس الإنسان — وهو يدعو — من هذه المعانى وتعرّت من تلك الصفة ، كان دعاؤه لغواً من القول لا نفع فيه ، ولا غَناء له .

وأكثر ما يفسد الدعاء ويذهب به هذا المذهب ، ويصرفه عن طريقه القويم القاصد هو حرص المرء على « مطلوب » الدعاء وما يرجوه من ورائه . . فهذا الحرص كثيراً ما يُذهله عن ذات الله ، وعن استحضار ما ينبغى أن يستحضر من جلاله وعظمته ، إن شدة الحرص على المطلوب تملأ قلب الإنسان غفلة عن الجهة التى يتوجه إليها بمطلوبه . . فلا يبقى على لسانه إلا كلمات جوفاء عمياء ، لا تعرف لها وجهة ، ولا تهتدى إلى غاية . . ومن ثَمّ كان حظ كثير من الدعاء الرد والطرد من موارد الاستجابة والقبول .

٤ — ثواب الدعاء :

وإذن . فالدعاء إذا أقيم على حقيقته ، وجاء على الصفة الكاملة له كان له ثواب العبادة الكاملة التى تؤدَّى لله من صلاة وزكاة وغيرها .

فمن الخطأ والجهل معاً أن يفهم الداعى أن دعاءه محجوز فى تلك الدائرة الضيّقة التى يحصر فيها مطالبه الدنيوية التي إن وقعت له حمِد وشكر، ورضي واطمأن، وإن أبطأ الجواب سَخِط وضجر، واستيأس من روْح الله ورحمته!!

وكلا.. فليعرف الداعى أن دعاءه — قبل كل شيء — عبادة يقدمها لله، وأن ابتهاله، وخشوعه، وخضوعه وتذلّله.. كل هذا صلوات لله، وتسبيح وتمجيد، وأن حظه من ثواب العبادة سيوفّى له، أضعافاً مضاعفة.. إن فاته مطلب من مطالب الدنيا، فلن يفوته ثواب الآخرة.

وليس هذا شأن الدعاء وحده، بل إن هذا شأن كل عبادة.. فالعبادة التي تجرى مجرى العادة، التى لا يجد الإنسان وهو يؤديها حالاً جديدة تدخل عليه فتوقظ مشاعره، وتنبه وجدانه،.. هذه العبادة ليس لها حظ من القبول، ولا نصيب من الثواب.. إنها ليست عبادة.. لأن العبادة فى حقيقتها عبودية لله.. ولن تحمل معنى العبودية إلا إذا تنبه لها الإنسان، واستحضر لها جلال الله وعظمته فخشع لذاته سبحانه وتعالى، وتعبّد له.

يقول الله سبحانه وتعالى. «وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين» فالاستكبار عن العبادة يتحقق بترك العبادة أصلا، كما يتحقق بالغفلة عنها

والاستخفاف بها وقت العبادة . . وإذا تحقق وجود الاستكبار لزم الحرمان من الاستجابة في الدنيا ، والعذاب الأليم فى الآخرة .

ويقول سبحانه : « وإذا سألك عبادى عني فإنى قريب . . أجيب دعوة الداعى إذا دعانى . . فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى . . لعلهم يَرْشُدون » فالرشاد وهو الفلاح إنما يقع لمن يستجيبون لله ويقبلون عليه بإيمان وثيق ، وقلب خاشع ، ووجدان يقظ .

فبالاستجابة لله ، والإقبال عليه ، تستيقظ المشاعر ، ويتنبّه الوجدان ، وتتجمع أشتات النفس . وعندئذ يكون العبد مهيأً لموقف العبودية ، آخذاً بالأسباب المُدْنِيَةِ من رضاء الله ورضوانه .

الفصل الثانى

أركان الدعاء: الداعى وأحواله ـــ صيغة الدعاء وقت الدعاء ـــ مكان الدعاء

لكى يكون الدعاء عبادة مقبولة، وضراعة مستجابة ، ينبغى أن يستوفىَ أركانه التى لا يقوم إلا بها ، وأن تتحقق له شروطه التى تجعل منه عبادة يُتوقع خيرها ويُرجَى ثوابها .

ذلك أن الدعاء يقوم على أربعة أركان هى :

١ ـــ الداعى ٢ ـــ صيغة الدعاء ٣ ـــ وقت الدعاء
٤ ـــ مكان الدعاء .

ولكل واحد من هذه الأركان شروط يجب أن تتوافر له ليؤدىَ وظيفته ، وليأخذ مكانه من الصورة الكاملة لموقف الدعاء السليم الكامل الذى يرجى له الاستجابة والقبول .

١ ـــ الداعى

والداعى هو الركن الأول والأهم فى صورة الدعاء .. وعلى قدر ما فى قلبه من الصحة والسلامة يكون حظ الدعاء من القبول

والاستجابة .. ولهذا كان المعوّل عليه فى قبول الدعاء أو عدم قبوله هو استعداد الداعى وما فى كيانه من قوى إيجابية أو سلبية تُدْنيه من ربّه أو تبعده عنه !

وأهم ما يجب أن يتحقق فى الداعى :

أولا : الإيمان بالله .. وبغير هذا الإيمان لا تقوم صلة بين العبد وربه .. وإذا لم تكن صلة فلا مُتَوجَّه للدعاء ، ولا قِبلةَ للداعِى ! وكيف يمدّ المرء يده إلى من لا يعرفه ، ولا يعترف له بوجود ؟ أليس ذلك ضلالا وسَفها ؟ وبلى ، إنه ضلال مبين وسفه غليظ !!

إن الإيمان بالله هو الذى يحدّد موقف العبد من ربّه ، ووَثاقةُ هذا الإيمان أو ضعفه هو الذى يضبط مرمى دعائه ويشير إلى الهدف الذى يبلغه .. فإذا حَسُنت صلة المرء بربّه وقويت ثقته به كان دعاؤه بمعرض الاستجابة والقبول ، وإذا ساءت صلة الإنسان بخالقه أو انقطعت ضلّ دعاؤه الطريق إلى الخير وأخطأ سبيل الفلاح .. « قل ادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » !

وإذن فلا بد أن يتحسَّس الداعى مواطن الإيمان من نفسه ، وأن يتعرف على الطريق الذى بينه وبين ربه ، وأن يَمْهَد له بالتقوى والعمل الصالح ، فذلك هو الذى يضمن لندائه جوابا حاضرا ، ويفتح لدعائه أبواب الاستجابة والقبول !

ثانياً : الثقة بالله ، والاستيقان بأن الله سميع له ، مجيب دعاءه ، وأن الله قد وعد ، ووعده الحق .. « وإذا سألك عبادي عني ، فإني قريب .. أجيب دعوة الداعي إذا دعاني ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي .. لعلهم يَرْشُدون » .. فمن تمام الإيمان بالله الثقة به ، والطمع في فضله .. فمن ضعفت ثقته بربّه ، ضعف إيمانه ، وتزعزعت عقيدته .. وهيهات أن يُخلص المرء في دعائه وفي قلبه ذرة من شك في قدرة الله ، وفي فضله !

والذي ينظر في الآية الكريمة : وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعاني ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي .. لعلهم يرشدون » — الذي ينظر في هذه الآية يجد في قوله تعالى « وليؤمنوا بي » تحريض قويّ على أن يملأ المرء قلبه ثقة وإيمانا بالله فيما يدعوه له ، ويرجوه منه « فليؤمنوا بي ! » أي ليثقوا في قدرتي ، ورحمتي ، وفضلي وكرمي ! .. فلْيُقبلوا إليّ ومعهم إيمان وثيق بقدرتي التي لا تحد وبموفور عطائي الذي لا ينفد .

ولهذا يقول الرسول الكريم : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله عزّ وجل لا يستجيب دعاءً من قلبٍ ساهٍ لاهٍ »

وسَهو القلب ، ولهوه هو خُلُوّه من الثقة المطلقة بالله ، وبقدرته القادرة على كل شيء ، ولا شك أن الثقة في أي شيء تجعل له في نفس المرء قيمة وقدرا ، فينزله من نفسه منزلة الإعزاز

والإكبار ، فإذا بلغت هذه الثقة مبلغ الإيمان امتزج هذا الشيء بكيان الإنسان وخالط شعوره ، وكان له تأثير بالغ في معنوياته ومادياته على السواء ! .. فإذا كانت هـذه الثقة متجهة إلى الله سبحانه وتعالى ، مصحوبةً بالإيمان الوثيق بأنه قادر على كل شيء ، محيط بكل شيء — استمد المرء من هذه القدرة الشاملة قوّة يبلغ بها ما يريد ويحقق بها ما يشاء !

إن السيد المسيح صلوات الله وسلامه عليه كان يصنع معجزاته بهذا الإيمان بالله والثقة الوثيقـة به ، وكان يقول لمن حوله من تلاميذه : « لو كان لـكم إيمان مثل حبة خردل لـكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ، ولا يكون شيء غير ممكن لديـكم » .

وكان كثيراً ما يقع الشفاء على يديه لا من جهته هو بل من قوة إيمان المؤمنين به الواثقين فيه :

« جاءت إليه امرأة تنزف دما فمست ثوبه فشفيت ، فقال لها ثقي يا بنية : إيمانك قد شفاك » !!

وجاءه مرة أعميان يصرخان ويقولان : ارحمنا يابن داود ، فقال لهما : أتؤمنان أني أقدر أن أفعل هذا ؟ فقالا له نعم ، فلمس أعينهما قائلا : بحسب إيمانكما ليـكن لـكما » فشفيا وأبصرا .

وكان المسيح عندما يمد يده إلى مريض ليصنع معجزة يتم بها شفاؤه يقول : أريد ..فابرأ ، فتتم المعجزة .. فأريد هنا ليست مجرد كلمة ولكنها شحنة قوية من الإيمان والثقة بأن ما يريد واقع لا شك فيه .

الإيمان قوة لا حدود لها متي ضُمّت عليه النفس ، واحتواه القلب ، . . وبهذا الإيمان ينفع الدواء ، ويستجاب الدعاء !

ثالثا : طهارة النفس . . فإن النفس هى الوعاء الذى يحل به الإيمان ، فإذا لم تكن التربة طيبة فإن جذور الإيمان لا تمسك بها ، ومن ثَمّ فلا يثبت الإيمان ، ولا يثمر ثمرة نافعة .

وطهارة النفس لا تتحقق إلا بأمور ، منها :

١ ـــ تطهيرها من الشرك ، وسوء الظن بالله . فاذا خالطها أو طاف بها طائف من سوء ظن بالله فلن يطهرهاشيء أبداً، ولن تصلح لأن تكون مستقراً لخير ، أو مستودعا لإحسان بأى حال .

٢ ـــ تطهيرها من الذنوب بالتوبة والاستغفار والندم على مافرط منها من سيئات . . وتصفية مابينها وبين المعاصى من حساب فإن التوبة الصادقة تغسل النفس مما ران عليها من أدران المعاصى ، فيعود إليها ـــ بعد التوبة ـــ صفاؤها وضياؤها . وتصبح قادرة على أن تستكشف معالم الخير وتتجه إليها .

٣ ـــ طهارة المطعم وذلك بأن يكون من حلال لا شبهة فيه ،

فان الطعام الطيب يُولِّد مشاعر طيبة طاهرة مشرقة ، والطعام الخبيث يخلق مشاعر خبيثة دنسة مظلمة ، والله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيباً .. ولا يقبل من الدعاء إلا ما صدر عن صدر سليم ، ونفس زكية ، ومشاعر طاهرة طيبة .

عن جبير بن مُطْعم أن سعد بن أبى وقاص ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يارسول الله ، ادع الله أن يستجيب دعائى ، قال: « يا سعد ، إن الله لا يستجيب دعاء عبد حتى يُطيِّب طِعْمته » قال : يارسول الله ادع الله أن يطيب طِعمتى فانى لا أقوى إلا بدعائك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أطب طعمة سعد »

فكان سعد بعد هذا مستجاب الدعوة ، لا يرد الله له دعاء يدعو به .

ثانيا : صيغة الدعاء

وكما أن للداعى شروطا لازمة له ليقوم مقاما صحيحا فى موقف الدعاء ؛ كذلك الدعاء فى صيغته له شروط خاصة يجب أن يستوفيها حتى يحقق الغرض المرجو منه .

ومن شروط الدعاء :

١ — أن يكون مفهوما للداعى ، أى باللغة التى يفهمها ، ويُفْهِم بها ، لتتصل بعقله وقلبه ، وترتبط بمشاعره ، وتكون جزءاً من وعيه الظاهر والباطن معاً .

وعلى هذا فالكلمات الغامضة المبهمة التي تشبه طلاسم السحرة وسجع الكهان ليست دعاء، وإنما هي شعوذة تلقى في قلوب الداعين ظلالاً من الرهبة والخوف لما يحيط بها من غموض هو غموض المجهول الذي يرهبه الإنسان ويخافه.

ومن عجب أن يحرص كثير من الناس على حفظ أدعية لا مفهومَ لها عندهم ولكنهم يرددونها، ويتوهمون أن في داخل كل كلمة منها خزائنَ من الأسرار الربانية، لا تفتح مغالقها إلا لمن يتعبدون بها في العشي والإبكار.

ومثل هذه الأدعية لا مُحصَّل لها ولا نفع فيها .. وكيف يرجى منها ما يرجى من الدعاء من خير ؟ والدعاء عبادة، والعبادة شعور مترجمٌ في كلمات، وإيمان مصور في عبارات ؟.

فاذا لم يكن للكلمة مدلول، وللعبارة مفهوم فكيف يكشف العبد عن حقيقة إيمانه ؟ وكيف يُفصح عن تمجيده لخالقه، وتخاشعه وتذلله لمالك الملك ذي الجلال والإكرام ؟

الكلمة هي ترجمان ما بين المخلوق والخالق .. تظهر فيها انطباعات النفس، وخلجات الشعور وخفقات القلب . . فإذا لم تصدر الكلمة عن وعي وفهم كان خليقا بها أن تضل وتضيع.

والله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليس إفصاح المرء عن حاجته ليُعلم ربًّا غير عالم، أو ليسمع إلهًا غير سميع

ـــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـــ وإنما هذا الإفصاح فى العبارة ليبعث فى نفس الإنسان يقظة وحياة ووعياً حين يقف موقف الدعاء أمام ربه ، فيعرف مـــكانه من خالقه ، ويستحضر مشاعر الإجلال والتوقير والخضوع لله رب العالمين .

إن الكلمات المفهومة للداعى تخلق معانى مفهومة له، وهذه المعانى هى تثير الوجدان وتحرك المشاعر، وتُحضر فى القلب صفات الخالق العظيم .

والصمت المتأمل عبادة ، ودعاء . . وخير للمرء إذ عىَّ لسانه عن القول الواضح أن يمسك عن الكلام ، وأن يجعل دعاءه صمتا خاشعا ، وسكونا متأملا ، أما الرَّطانات المبهمة الغامضة بالكلام المبهم الغامض فذلك شعوذة وعبث يجب أن يتنزه عنهما موقف العبادة والدعاء !

أليس من الخبال والضلال معاً أن يعدل المسلم عن الدعاء بما وصَّى به القرآن ، وما نطق به النبي إلى هـذه الصيغ الأعجمية التى لا يعرف لها رأسا ولا ذنبا ، ولا يدرك لها مدلولا ولا معنى — إن كان لمثل هذه الخيالات مدلول ومعنى ؟ بلى إن ذلك هو الضلال البعيد والخسران المبين !

وشتان بين أن يدعوَ المسلم فيقول بما علمنا القرآن أن ندعو الله به فى قوله تعالى : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وفى قوله: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » ولا تجعل فى قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا » وفى قوله : « ربنا

لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحملْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا،وارحمنا،أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين» أو يدعو ببعض ما كان الرسول يدعو به فيقول : (اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزَن ، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من قهر الدَّين وغلبة الرجال . . » شتان بين أن يدعو المسلم بهذا الدعاء الواضح المفهوم الذى يهدف إلى غاية ، ويشير إلى خير ، وبين أن يقول : « أهم كسق » حلع ، يص » أو يقول:سقفا طيس ، سقاطيم ، جلجلوت ...إلى آخر هذه الألغاز التى تتعثر بها الألسنة ، وتختلج بها الشفاه !؟

وليست البلية فى هذه الأدعية الغامضة مقصورة على ضياع الوقت سدى فى ترديدها ولا فى عدم تحصيل ثمرة منها ، وإنما لها وراء هذا خطر آخر يكمن فى أطوائها ، له تأثيره السيء فى سلوك الإنسان ، ذلك أن ترديد مثل هذه الكلمات الملتوية الغامضة ، وإيثارها على الكلمات المفهومة الواضحة يخلق فى نفس الإنسان عادة وميلاً إلى إيثار الطريق المظلم الملتوى فى الحياة على الطريق المستقيم الواضح بما تترك هذه الكلمات الغامضة المظلمة من انطباعات غامضة مظلمة فى نفس من يرددها . فما الإنسان إلا ابن المعانى التى تدور فى رِيانه ، وما المعانى إلا المحتوى الذى تحمله الكلمات فى طياتها . .

فالكلمة ليست بالشيء التافه الذي يلقيه الإنسان كما يلقى فضلات الطعام ، وإنما هي أخلاق ، وسلوك وأعمال . . بها تتجسد الخواطر وترتسم الأفكار ، وتبرز الأعمال .. فإذا ساءت الكلمة والتوت، ساءت طبيعة الإنسان وضل سعيه فى الدنيا والآخرة جميعا ، وإذا كانت الكلمة نيرة مشرقة أفاضت على نفس المرء نوراً من نورها وإشراقاً من إشراقها .

وقد ذمّ الله سبحانه وتعالى اليهود لتحريفهم الكلم عن مواضعه واستعمال الكلمات ذات المدلول المعوج الذى يراد للشيء ونقيضه ، ويُستخدم للخداع والتضليل .. يقول سبحانه وتعالى : « مِنَ الذين هادوا يحرفون عن الكلم عن مواضعه ، ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مُسْمَعٍ ، وراعنا ، ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين .. ولو أنهم قالوا سمعنا،وأطعنا،واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا[1] » . ذلك أنهم عن طريق هذا الأسلوب الملتوى يسترون كفرهم وطعنهم فى الدين . فيقولون الكلمة ظاهرها خير ، وباطنها الإثم والمنكر ، فاستحقوا لهذا اللعنة وسوء المصير .. إن الكلمة ذات الدلالة الواضحة كلمة مشرقة ، تنقل عن صاحبها معنى واضحا مشرقا وتجد أذنا سامعة وقلبا واعيا ؛ لا تذهب به مذاهب الظنون فيما يراد منها . والكلام السليم الواضح فى باب الدعاء يكشف عن المحتوى الوجدانى

---

(١) سورة النساء : ٤٦

للداعى ، ويصور له الصلة القائمة بينه وبين ربه فى وضوح وجلاء. فيعرف فيها حقيقة ما يطلب من ربه ، ويرى مقدار ثقته فى الله واعتماده عليه .. أما الكلمات الأعجمية ، فهى أصوات صماء عمياء لا يُرى لها وجه ، ولا يُسمع لها صدى ! !

ومن يدرى ؟ فقد يكون هذا الكلام الأعجمى فى حقيقته محمّلا بمعانى الشر والخسران بينما يظنه الداعى مشحونا بهواطل الرحمة والخير . . وقد كان من السلامة أن يعدل الداعى عن هذا الكلام الذى لا يدرك له معنى إلى الكلام المفهوم له القريب إلى عقله وقلبه .

سأل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا ، فقال له : ما تدعو فى فى صلاتك ؟ قال : أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار . . أما أنّى لا أحسن دَنْدَنَتَك ولا دَنْدَنة مُعاذ — يريد معاذ بن جبل فقال النبى الكريم : حولها نُدَندن » فقد رضى الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن دعاء هذا الرجل الذى لم يكن يحسن اختيار جيّد الكلام فى براعة الأسلوب ودقه المعنى على النحو الذى كان يشتمل عليه دعاء الرسول الكريم من جلال وروعة . . فقال له الرسول : « حولها تدندن » أى أنك لم تبعد عن الطريق الصحيح للدعاء ! فكل ما يصوّر عاطفة المرء ، وينقل أحاسيسه ، ويترجم عن آماله فهو دعاء قائم على الطريق المستقيم للدعاء . . إذ ليس للدعاء صيغ مرسومة أو عبارات مقررة لا يخرج عليها المرء ، ولا يجاوز حدودها

.. كلا فإنه إذا كانت هناك أدعية مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو عن خلفائه وصحابة فما بمضيق على المرء أن يدعو بها وبما يفتح الله له من قول فى باب الدعاء : فقد كان لكل خليفة من خلفاء الرسول أو صحابى من صحابته رضوان الله عليهم دعاءه الخاص الذى يدعو به ، بل أدعيته التى يراها مناسبة للحال التى يدعو بها ، والتى تستطيع أن تحمل مشاعره وتلتقط أحاسيسه .

ونستطيع أن نقول إنه ينبغى ألا يلتزم المرء صيغة أو صيغاً محددة فى الدعاء يدعو بها فى كل حين ، وأولى له أن يجدّد فى دعائه بين الحين والحين ، فتتجدد بذلك مشاعره ، وينشط وجدانه ، وينبعث الدعاء منه حيا نابضاً بالحياة .

ولهذا لم يتعبَّدنا الله سبحانه وتعالى بالدعاء الذى ندعوه به ، بل جعل ذلك إلينا ، كلّ يستملى ما تجود به نفسه ، وما يعطيه قلبه ، وما يثمره إيمانه ويقينه ! ليكون ذلك بعثا لإيمان المرء ، وتحريكا لمشاعره فيستحضر عظمة ربه ، ويستنزل فضله ورحمته بما يجد فى نفسه من حرارة الإيمان وقوة اليقين .. ويتخير لذلك من الكلام ما يناسب حاله الشعورية وما ينقل فى صدق ودقة تلك الحالة من عالم المشاعر إلى عالم الحس المصور فى ألفاظ وعبارات . على أن يلتزم فى ذلك ما أشرنا إليه من قبل من اختيار الكلام الواضح المفهوم ، والابتعاد عن التكلف واصطناع الفلسفة الفارغة ، والتأويلات الفاسدة التى لا مضمون لها ، ولا محصل لمفهومها .

سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً يدعو فيقول فى دعائه « اللهم اجعلنى من الأقلّين » فقال عمر : ما هذا الدعاء ؟ قال سمعت الله تعالى يقول : « وقليل ماهم » وسمعته يقول « وقليل من عبادى الشكور » فقال عمر : عليك من الدعاء بما يعرف !

ب — أن يكون مطلوب الدعاء متفقا مع ما عرف المؤمنون من فضل الله ورحمته وكرمه ، فلا يضيق المؤمن على نفسه فى الطلب ، ولا يستكثر ما يطلب ، فإن يد الله مبسوطة ، وخزائنه لا تنفد ، وقدرته لا تحد ، وفضله أوسع مما يظن الجاهلون . فليدعُ المرء غير مضيق على نفسه ولا متخوف من الاستكثار من كل خير ، فالخير كثير لا ينفد أبدا .

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل قد صار مثل الفرخ انكماشا وضعفا ، فقال له النبي صلوات الله وسلامه عليه : هل كنت تدعو بشيء ؟

قال : كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبي به فى الآخرة فعجِّله لى فى الدنيا ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سبحان الله ! إنك لا تستطيعه ، ولا تطيقه ! هلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخر حسنة وقنا عذاب ؟ »

فما أشدَّ ظلم هذا الإنسان لنفسه ! وما أكثر غباءه وسوء ظنه بالله ! أيظن أن رحمة الله تضيق به فيستكثر على الله أن يَفضُل عليه

بثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ؟ إن ذلك جهل، وضيق نفس، وضعف إيمان !

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « قيل يا رسول الله : إنا ندعو بدعاء كثير . منه ما نرى إجابته ، ومنه ما لا نرى إجابته ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « والذى نفسي بيده ما من أحد يدعو بدعوة إلا استجيب له ،أو صُرف عنه مثلها شراً » . قالوا : يا رسول الله : إذاً انكثر ؟ قال : « الله أكثر ، وأكثر .الله أكثر وأكثر . الله أكثر وأكثر » !!

نعم الله أكثر وأكثر ! وأين ما يطلب العباد من فضل الله ورحمه وقدرته ؟ قطرة من بحر يمده من بعده وسبعة أبحر !

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : إن الله تعالى يقول : من ذا الذى دعانى فلم أجبه ، وسألني فلم أعطه، واستغفرنى فلم أغفر له ، وأنا أرحم الراحمين؟ » سبحانك ربى ماأوسع رحمتك وما أعظم فضلك !

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا فتح الله على عبد باب الدعاء فليكثر فإن الله يستجيب له ..»

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : من فتح له باب فى الدعاء فتحت له أبواب الإجابة ، ومعني فتح باب الدعاء للإنسان أن ينشرح صدره ، وتصدق نيته فيلجا إلى الله طارقا باب رحمته مستمنحا فضله بما يدعو .

ح ــ أن يكون مطلوب الدعاء مما لا يتعارض مع شريعة الإسلام فى حل أو حرمة ، فلا يدعو المرء بما حرم الله كخمر أو خنزير ، ولا بما يضار به غيره كذهاب ثروته ، وهلاكه ، أو هلاك ولده ، وذلك لشيء فى نفسه كحسد أو عداوة ، إلا أن يكون مظلوماً ، فالله سبحانه وتعالى ، قد جعل للمظلوم أن يدعو على ظالمه ، قال الله سبحانه وتعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » ومع هذا فخير للمظلوم أن يطلب إلى الله إنصافه من ظالمه دون أن يجاوز ذلك الحد بالمبالغة فى الدعاء عليه بالحق وبالباطل .

ثالثا : وقت الدعاء

ومع أنه ليس للدعاء وقت محدود يمد المرء فيه يده إلى الله ، ويرفع إليه وجهه ، فالله سبحانه وتعالى قائم على خلقه ، سميع عليم ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .. فهو معنا حيث نكون ، وكيف نكون .. ندعوه ليلا ونهارا ، سراً وجهراً ، فى وحدةٍ ، ومع الجماعة . . نقول ومع هذا فإن هناك أوقاتا يتجلى الله فيها على عباده . . أوقاتا اختصها الله سبحانه وتعالى بالبركة والقبول . .

يقول الله سبحانه وتعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك » ويقول « إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا » ويقول : « وبالأسحار هم يستغفرون » ويقول : « وقرآن الفجر .. إن قرآن الفجر كان مشهوداً »

فالدعاء في جوف الليل والناس نيام يخرج من نفس مجتمعة قد أشاع فيها سكون الليل وهدأته سكوناً وهدوءاً ، إذ قد فرغ القلب من الشواغل وخلت النفس من الوساوس، وسكنت الجوارح، وتنبهت المشاعر، واستطاع الإنسان أن يوجّه وجهه إلى الله خالصاً غير مشدود إلى شواغل الدنيا ، ومطالب الحياة .

ويقول الرسول الكريم : « تُفتح أبواب السماء، ويستجاب دعاء المسلم: عند إقامة الصلاة، وعند نزول الغيث، وعند زحف الصفوف في سبيل الله ، وعند رؤية الكعبة »

والذي ينظر في هذه الأوقات يجد أنها لحظات تهيء المرء للصفاء النفسي، وتُعده للاتصال بالله اتصالا وثيقا ، وذلك لما يكون عليه المرء في هذه الأقات من استعداد نفسي للانخلاع عن ماديات الحياة والإقبال على ما عند الله من زاد طيب ، تتغذى به الروح ويرتوى منه القلب !

وتنظر في هذه الأوقات التي يقول الرسول الكريم عنها إنها أوقات تفتح فيها أبواب السماء ويستجاب فيها دعاء المسلم !

(١) عند إقامة الصلاة . .

فحين يقبل المرء على الصلاة يستشعر في نفسه أنه بين يدى الله ، وأنه في موقف يناجي فيه ربه . . فإذا صدقت نيته، وخلصت نفسه في هذا الموقف العظيم بين يدى رب العالمين ؛ لبسته روحانية

صافية مشرقة ، واستولت على كيانه رهبة خاشعة ، وغشيه جلال مهيب ، واستولت عليه حال ينسى فيها نفسه ويذهل بها عما حوله ، وتلك حال المصلين الذين يقول سبحانه وتعالى فيهم « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » فإذا قُدِّر للمرء أن يبلغ منازل الخاشعين فى صلاتهم فقد أفلح ايما فلاح حيث ينادى فيجاب ويدعو فيُلبَّى . . « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداعى إذا دعانى ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشُدون » فالاستجابة لله إنما تكون بالإقبال عليه إقبالا خالصاً من كل مايشغل القلب ، ويخدع النفس . . والإيمان بالله هنا هو الثقة به وبقدرته وكرمه ورحمته . . وليس كموقف الصلاة موقف يأخذ فيه المرءُ نفسه بالخشوع والخضوع لله ، فليجرب المصلى أن تكون صلاته صلاة الخاشعين ، وأن يستحضر جلالة الله وعظمته ، وأن يذكر الآخرة وما فيها من حساب وجزاء ، وجنة ونار ، وسيجد أنه قد تحول من حال إلى حال ، وأنه انتقل نقْلة كبيرة ، وقطع شوطا بعيدا فى عالم الخير والنور !

فى غزوة ذات الرِّقاع سبى المسلمون امرأة كان زوجها غائباً ، فنذر زوجها بعد أن رجع ألا يرجع حتى يُريق دماً فى أصحاب محمد ! ! فجاء ليلا ، وقد أرصد النبى صلى الله عليه وسلم رجلين ربيئة[1] للمسلمين من العدو : وهما عباد بن بشر ، وعمار بن ياسر ، فرمى الرجل

---

(١) الربيئة : من يتقدم الجيش مستطلعا أحوال العدو .

عبّادًا — وهو قائم يُصَلى — بسهم، فنزعه ولم يُبطل صلاته حتى رشَقه بثلاثة أسهم، ولم يخرج من صلاته حتى سلّم، فأيقظ صاحبه، فقال له صاحبه سبحان الله!! هلاّ أيقظتنى أول مارَماك؟ فقال عباد: كنت فى سُورة أقرؤها فكرهت أن أقطعها!!

هكذا يكون موقف العابدين الخاشعين فى الصلاة، وهكذا تبلغ الصلاة من نفوس المصلين!

وليس فى مقدور كل إنسان أن يبلغ هذه المنزلة .. ولكن فى استطاعة كل إنسان أن يحاول السير فى هذا الطريق قدْرَ جَهده: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها».. ولن يُحرمَ مجتهد ثمرة اجتهاده، ولن يبخس عامل أجر عمله .. على أن إخلاص النية هو الأصل فى قبول الأعمال، وتحصيل الخير منها..

رأى عمر بن عبد العزيز رجلا يسبّح بالحصا فاذا بلغ مئة عزل حصاة، فقال له عمر: ألق الحصا وأخلص الدعاء!!

(ب) وعند نزول الغيث: — تفتح أبواب السماء .. ويستجاب الدعاء .. والذى ينظر فى هذا الوقت يجد أنه وقت رحمة وبركة .. فإن نزول الغيث رحمة راحمة من الله، وخيرٌ غدَقٌ من خير الله وفضله .. ففى نزول الغيث حياة لكل ميت، من أرض وحب، وحفظ لكل نفس من إنسان وحيوان! ولذلك سماه الله غيثا؛ لأنه يغيث لما فيه من عوث ونجدة، قال تعالى: «وأنزلنا من المُعْصرات[1]

(١) المعصرات: السحب.

ماء ثجاجا ، لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافاً » وقال سبحانه: فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقاقاً فأنبتنا فيها حبا وعنبا، وقضبا[١] ، وزيتونا، ونخلا، وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا،[٢] متاعا لكم ولأنعامكم » وقال : «وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » ..

فالغيث رحمة راحمة من الله ، وحين ينزل يكون نزوله مؤذنا برحمة الله وتدفقها على الناس . . وتلك فرصة طيبة يهتبلها المؤمن ليأخذ نصيبه من هذه الرحمة المتدفقة ، فإذا بسط يده بالدعاء فلن ترجع إلا مليئة بالخير والإحسان !

وأمر آخر عند نزول الغيث . . فإن هذه المظاهرة الطبيعية الرائعة التى تشمل الوجود عند نزول المطر وما يصحبه من رعد وبرق وسيول جديرة بأن يستجيش لها شعور المرء ، وأن يهتز لها كيانه .. فالسحاب المتدافع المنطلق إلى كل وجه فى السماء ، والبرق اللامع ، والرعد القاصف ، والماء المتدفق ، والأرض الضاحكة ، والسيول الجارية .. هذا المنظر المعجب الرائع ، بجماله ، وجلاله ، وسطوته وجبروته ، لا بد أن يثير فى كل نفس مثارا .. من خوف ورهبة ، أو عبرة وعظة ، أو متعة ، وغبطة . . وكلها حالات يصفو فيها الوجدان ويتنبه لها الشعور ، ويتفتح لها القلب ..

وخير حالات الدعاء أن يكون المرء على تلك الأحوال

---

(١) القضب : ما يأكله الحيوان من النبات اليابس .
(٢) الأب : ما يأكله الحيوان من النبات رطباً .

جميعها أو على حال منها . . فهو عندئذ أكثر استشعارا لجلال الله وعظمة الخالق .

(ح) وعند زحف الصفوف فى سبيل الله . . تفتح أبواب السماء . . ويستجاب الدعاء ! فهذا الوقت .. وقت امتحان وابتلاء .. فيه قد ابتُلى المؤمنون أشد ابتلاء ، وامتحنوا أقسى امتحان . . ابتلوا فى أنفسهم ، وامتحنوا ببيعها فى سبيل الله ، وقد احتملوا الابتلاء ، وصبروا للامتحان ، ووَطّنوا النفوس على الموت فى سبيل الله ، فخرجوا للقتال : يَقْتُلون أو يُقتَلون !

فى هذا الوقت يكون المرء فى أعلى درجات الصّفاء النفسى .. فقد ترك الدنيا كلها ، وأقبل على الله ، وليس بينه وبين الحياة الآخرة إلا خطوة أو خطوتين ! إنه قد أصبح من عالم آخر ، عالم الروح .. عالم الشهادة .. فلن يُرد له دعاء ، ولن يحجب دونه شيء !

رُوى أن عبد الله بن جحش رضى الله عنه خرج مع رسول الله ﷺ يوم أُحد ، فدعا فقال : « اللهم إنى أقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيَقتُلونى ، ثم يَبْقروا بطنى ! ويَجْدعوا[1] أنفى وأذنى ! ثم تسألنى : فيم ذلك ؟ فأقول فيك يارب ! » فاستجاب الله له ، وكتب له الشهادة على النحو الذى سأل !

وهذا يؤكد ما أشرنا إليه من قبل من أنّ المعَوّل عليه فى الدعاء هو سلامة قلب الداعى ، وخُلوص نيته ، وصفاء روحه ، وأنه

---

(١) جدع أنفه : أى قطعها .

بقدر ما يبلغ الإنسان من هذه الصفات يكون حظه من استجابة دعائه وقبوله .

(ى) وعند رؤية الكعبة . . تفتح أبواب السماء ، ويستجاب الدعاء !

وتلك لحظة لها رهبتها وجلالها فى نفس الواقف من الكعبة موقف المشاهد ، إذ جعل الله سبحانه وتعالى لهذا المكان القُدسى الطاهر موقعا فى النفوس ومكانا فى القـــلوب ، يعرفه كل من دنا منها ، ونظر إليها .. « إن أول بيت وُضع للناس للذى بِبَكَّة (1) مباركا ، وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات ، مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا » فقد وصفه الله بما أودع فيه من خير وبركة . . مباركا ، وهدى للعالمين . . فيه آيات بينات . . مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا » ففيه البركة تطالع من يغشاه ويدنو منه ، وفيه الهدى لمن يتجه إليه ، ويأخذ عنه ، وفيه آيات بينات بما يبعث فى نفوس الناظرين إليه من جلال وروعة . . مقام إبراهيم . . من دخله وجد السكينة والأمن والسلام .

فالنظر إلى الكعبة يبعث فى المرء مشاعر الجلال والخشوع ، ويحرك عواطف الذلة والخضوع لله رب العالمين . . وتلك لحظة

---

(1) بكة : أى مكة .

يخرج فيها الدعاء ممتزجا بحرارة الإيمان ، مخالطا لمشاعر الإجلال والإكبار لله الواحد القهار .

ونقرأ حديث الرسول الكريم مرة أخرى : « تفتح أبواب السماء ، ويستجاب دعاء المسلم : عند إقامة الصلاة ، وعند نزول الغيث وعند زحف الصفوف فى سبيل الله ، وعند رؤية الكعبة » . . نقرأ هذا الحديث مرة أخرى ونستحضر المعانى التى من أجلها يستجاب الدعاء فى هذه الأوقات فندرك الوصف الذى وصف الله به نبيه الكريم : « وما ينطق عن الهوى » فما نطق الرسول بهذه الأحكام إلا عن إملاء السماء ، فجاءت أضوأ من النور ، فى صدق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن الأوقات التى يستجاب فيها الدعاء . . جوف الليل ، وأدبار الصلوات فقد روى عن أبى أمامة أنه سأل ﷺ : أى الدعاء أسمع [1] ؟ فقال ﷺ : « جوف الليل وأدبار المكتوبات » . . وجوف الليل — كما أشرنا — وقت يستجمع فيه المرء أشتات نفسه ، وشوارد قلبه ، فيقبل على الله بنفس خالصة ، وقلب جميع . . وأدبار المكتوبات أى عقب الصلوات وقت يكون فيه المرء قد قطع وقتا طيبا فى مناجاة ربه أثناء الصلاة ، فصفت نفسه ، وخلص ضميره من بعض ما ثقل به من ذنوب بالتوبة والاستغفار . .

ومن الأوقات التى يستجاب فيها الدعاء ساعة فى يوم الجمعة :

فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خير

(١) أى أقرب إلى الله .

يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، إن فيه لساعة لا يوافقها عبد يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه » .

وقد اختُلف فى ابتداء وقت هذه الساعة ، فقيل أول ساعة من طلوع الشمس فى ذلك اليوم ، وقيل : آخر ساعة من غروبها ، وقيل عند جلوس الإمام على المنبر ، وقيل من الزوال إلى ابتداء الصلاة ، وقيل : من بعد العصر إلى الغروب ، وقيل : إنها تنتقل فى ساعات اليوم كما تنتقل ليلة القدر فى شهر رمضان .

وقد روى عن ابن عمر عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « هى ما بين أن يجلس[1] الإمام الى أن تُقضى الصلاة » .

وعن فاطمة رضى الله عنها أنها سألت النبى ﷺ عنها فقالت: يا أبت ، أى ساعة هى ؟ قال : إذا تدلى نصف الشمس للغروب « فكانت فاطمة رضى الله عنها إذا كان يوم الجمعة تأمر غلاما لها يقال له زيد يرصد لها الشمس ، فإذا تدّلى نصف الشمس للغروب أعلمها ، فتقوم فتدخل المسجد فتدعو حتى تغرب الشمس ، فتصلى » .

---

(١) أى يجلس على المنبر لخطبة الجمعة .

رابعاً - مكان الدعاء

فى كل مكان يستطيع المرء أن يذكر الله، ويمد إليه يديه بالدعاء، فالله سبحانه وتعالى قائم على كل نفس، محيط بكل مكان، حاضر حيث نكون وكيف نكون: «ما يكون من نَجْوَى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا»

وكما يصطفى الله سبحانه وتعالى من يصطفى من الناس، كذلك يصطفى ما يشاء من الأزمنة والأمكنة. فيمنحها الطهر والبركة، ويضفى عليها الجلال والقداسة، ويشمل من يتصل بها بالخير والإحسان.

فهناك أمكنة — مباركة تغشاها السكينة — وتظللها الرحمة، يجد المرء من شميم تُرْبها عرفَ الطهر، وأنسام الجلال، فتخشع نفسه، وترق مشاعره، وتصفو روحه، وإذا هو قريب من الله، قريب من رحمته.. يدعو بنفس مطمئنة، وقلب سليم طامع فى فضل الله ورحمته.

ومن هذه الأمكنة التى يدنو فيها المرء من ربه ويقترب من فضله:

١ — مكة المكرمة: البلد الحرام، الذى فيه وُضِع أول بيت للناس، وظهر فيه خاتم النبيين وصفوة المرسلين، ورحمة العالمين. محمد بن عبد الله.

اختصت مكة بهذا الفضل الذى حباها به الله سبحانه وتعالى ، حتى لقد استشعر المشركون قبل بعثة النبي هذه البركة التى ترف عليها من السماء . . وقد كانت حادثة « الفيل » قبل مبعث النبي آيةَ صدق على أن هذا البلد الكريم ملحوظ بعناية الله، محفوظ برعايته: « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » . فلقد أهلك الله أصحاب الفيل بهذا البلاء الذى صبه عليهم، حين أرادوا بهذا البلد سوءاً ، وبالبيت الحرام كيداً ..

وفى ظل الإسلام ازداد هذا البلد تمكينا فى القلوب وشرفا بين البلاد ، فطلعت منه شمس النبوة ، وأصبح محج المسلمين من آفاق العالم كله ..

فإذا دخل المسلم هذا البلد دخله وفى نفسه هذه المعانى الطيبة لهذا البلد الطيب ، فتستجيب لذلك دواعى الخير منه، وتتحرك لهذا دوافع السمو فيه، فيرتفع إلى مستوى كريم من مستويات الإنسانية الفاضلة المؤمنة ، يناجى الله ويناديه ، فيستمع مناجاته ويستجيب دعاءه . !

٢ — ومن هذه الأمكنة أيضاً « عرفات » وهو منسك من مناسك الحج ، وركن من أهم أركانه .. والوقوف به هو الحج .. ولهذا سمى يومه يومَ الحج الأكبر .. يقول الله سبحانه وتعالى : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين

ورسوله » .. وفيه يقول الرسول الكريم : « الحج عرفة » وفيه خطب الرسول صلوات الله وسلامه عليه الخطبة الجامعة فى حَجَّة الوداع .

عرفة .. مكان اجتماع الحجيج من أقطار المسلمين ، قد وفدوا من كل جهة ، ونفروا خفافا وثقالا إلى بيت الله الحرام يؤدون فريضة الحج ، ويبتغون فضلا من الله ورضوانا . . فإذا اكتمل جمعهم ، وقضوا مناسك الحج نفروا إلى « عرفة » ليؤدوا أهم منسك فيه ، وهناك ترتفع أصواتهم بالتّلبية ثم يرمون الجمرات .

ومكان يقل على ظهره هذه الجموع الحاشدة المقبلة على الله المستجيبة لدعوته ، النازلة فى ضيافته — مكان هذا بعض صفاته جدير أن يكون منزل بركة ورحمة لمن ينزل به ، فإذا دعا الداعون فى هذا المكان الطهور دعوا وملء قلوبهم خشية وإجلال وطمع فى رضوان الله ورحمته . .

الباب الثالث

الدعاء بين السر والجهر

من أدب الإسلام أن رفع الصوت — لغير حاجة — عمل غير محمود ، يكشف عن طبع جاف ، وإحساس غليظ . . وفى وصية لقمان لابنه يشبه له الصوت المرتفع بأنكر الأصوات وهو صوت الحمير : يقول الله سبحانه وتعالى على لسان لقمان : « واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك .. إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

ويؤدب الله سبحانه وتعالى المسلمين بهذا الأدب الإنسانى العالى فينهاهم أن يرفعوا أصواتهم عند رسول الله .. « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » . . ثم يمدح الذين يَغُضُّون أصواتهم عند رسول الله ، وأن ذلك ثمرة من ثمرات التقوى : « إن الذين يَغضّون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم »

وقد جرى فى عرف المدنيّة الحديثة أن إخفات الصوت من سمات الرجل المتمدين المهذب ، وأن رفع الصوت من علامات الرجل البدائى « المتوحش »

وموقف العبادة موقف له جلاله وروعته .. موقف بين يدى الله رب العالمين... من حقه أن تخشع له القلوب، وتسكن له الجوارح.. واللسان جارحة الدعاء، والقلب وعاؤه، فإذا صدر الدعاء عن قلب خاشع، ولسان ساكن كان أقرب إلى المخافتة منه إلى الجهر .. وإلى الإسرار أكثر من الإعلان.

يقول ابن القيم فى تفسيره «التفسير القيم» عند شرح قوله تعالى: «ادعوا ربكم تضرعا وخفية» .. إذا عرفت هذا، فقوله تعالى: «ادعوا ربكم تضرُّعا وخُفْيَة» يتناول نوعى الدعاء، ولكنه ظاهر فى دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره .. قال الحسن[1]: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، وما يُسمَع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: «ادعو ربكم تضرعا وخفية» وأن الله ذكر عبدا صالحاً ورضى بفعله فقال: «إذ نادى ربه نداء خفيا».

- وقال ابن القيم: وفى إخفاء الدعا فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانا، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفى وليس كالذى قال: إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.

وثانيها: أنه أعظم فى الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الصوت، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخفت

(١) أى الحسن البصرى من أئمة التابعين .. عرف بالفقه والزهد.

عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ، ومن رفع صوته لديهم مقتوه . . ولله المثل الأعلى ، فإذا كان ربنا يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفضُ الصوت به .

ثالثها : أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده ، فإن الخاشع الذليل الخاضع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه . وخشع صوته ، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق ، فقلبه سائل طالب مبتهل ، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت ، وهذه الحال لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلا .

ورابعها : أنه أبلغ في الإخلاص .

وخامسها : أنه أبلغ في جمعيّة القلب على الله في الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته . فكلما خفض — الداعي — صوته كان أبلغ في حمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى .

وسادسها : وهو من النكت السرية البديعة جدا أنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لاقترابه منه ، وشدة حضوره ؛ يسأله مسألة أقرب شيء إليه ، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، ولهذا أثنى سبحانه وتعالى على عبده زكريا إذ يقول « إذ نادى ربه نداء خفيا » فكلما استحضر القلب قرب الله

تعالى منه ، وأنه أقرب إليه من كل قريب ، وتصور ذلك ، أخفى دعاءه ماأمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن كما أنه من خاطب جليسا له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه ، ولله المثل الأعلى سبحانه،وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهو معه في السفر فقال، « اربعوا [1] على انفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا .. إنكم تدعون سميعاً قريباً أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .. وقال تعالى « واذا سألك عبادى عني فإني قريب .. أجيب دعوة الداعي إذا دعان .. »

وسابعها : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال فإن اللسان لايمل والجوارح لا تتعب ، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه يكل لسانه وتضعف بعض قواه .

وثامنها : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات ، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل له هناك تشويش ولا غَيْرةٌ ، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة الخبيثة من الجن والإنس ، فشوشت عليه ولا بد ، ومانعته وعارضته ...

وتاسعها : أن أعظم النعم هو الإقبال على الله ، والتعبد له ، والانقطاع إليه ، والتبتل إليه .. ولكل نعمة حاسد على قدرها ..

(١) اربعوا على أنفسكم : أي توقفوا وأمسكوا عما أنتم فيه من الصياح .

دَقّت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة ، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد .. وقد قال يعقوب ليوسف : « لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا .. إن الشيطان للإنسان عدو مبين »

وعاشرها : أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب ، كما قال ﷺ : « أفضل الدعاء الحمد لله ». فسمى الحمد دعاء ، وهو ثناء محض ، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب . . .

وتأمل كيف قال فى آية الذكر : « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة » وفى آية الدعاء : « ادعو ربكم تضرعا وخُفيَة » فذكر التضرع فيهما معا ، وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخُفية لِما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف . فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد ، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته ، والمحبه ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره .. لأنها توجب الإدلال والانبساط ، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين الى أنهم استغنوا بها عن الواجبات . وقالوا : المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب ، وإقباله على الله ومحبته له ، وتأليهه له ، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل !؟

فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية عن قشرها .. وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته، ولهذا قال بعض السلف : من عَبَدَ الله بالحُبّ وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري[1] ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء[2] ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن . . وقد جمع سبحانه وتعالى هذه المقامات الثلاثة فى قوله :

« أولئك الذين يَدْعُون ويبتغون إلى ربهم الوسيلةَ أيُّهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه » فابتغاء الوسيلة — هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف .

وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات، ويقول : المحب لا يضره ذنب .. وقد صنف بعضهم فى ذلك مصنفا ذكر فيه أثراً مكذوبا : « إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب » وهذا كذب قطعاً مُنَافٍ للإسلام .. فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن .. وإذا قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ ، وأما عن رسول الله ﷺ ، فمعاذ الله من ذلك — فله محْمَل ، وهو أنه إذا أحبه لم يَدَعْه حبه إياه إلى أن يُصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبا لله ، وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه : فإنه يُمحا أثره ولا يضره الذنب . . وكلما أذنب وتاب وأناب إلى الله زال عنه أثر الذنب وضرره .. فهذا المعنى صحيح ! . . اهـ »[3]

---

(١) حروري : نسبة إلى طائفة من الخوارج .

(٢) المرجئة . وهى من الفرق الخارجة على الملة والتى تطلب الرجاء بغير عمل .

(٣) التفسير القيم لابن القيم ص ٨٧ .

الفصل الرابع

الدعاء .. والقضاء والقدر

قد يُوحِى المفهوم الخاطىء للقضاء والقدر أن يزهد بعض الناس — نتيجةً لهذا الفهم الخاطىء — فى الدعاء، فلا يرفعون أيديَهم إلى السماء ضارعين إلى الله؛ لجلب خير أو دفع ضُر..

ولا يصح أن يحمل منهم هذا أبدا على محمل التسليم المطلق لله، والرضا بقضائه وقدره، بأن تكون حجتهم عند أنفسهم: أن الله هو القائم على كل شىء، وإليه يُردّ كل شىء، وأن ما قدره وقضاه إنما بحكمته وعلمه، وأن بقدرته ينفذ ما قدر وقضى .. فلا راد لما يقضى ويريد. وإذن فماذا يكون مُحصَّل الدعاء مع قضاء الله وقدره؟ أيرد ذلك من قضاء أو يدفع من قدره؟ لَخَيْرٌ إذن أن نسلم أمرنا إلى الله، ونستقبل ما يقضى به بالرضا والقبول؟

وتلك حجة داحضة، وحق أريد به باطل.. نجم عن فساد فطرة، أو ضعف عزيمة وفتور همة! .. وإلا فكيف يصير هؤلاء الى هذه الفلسفة المريضة التى تُنْزِل أصحابها منزلة دون منزله الحيوان الذى إن عطش سعى إلى الماء، وإن جاع بحث عن الزاد، وإن أصابه حر الشمس تحول إلى الظل، وإن لفحه الزمهرير فى الظل

تحول إلى الشمس .. ولو كان مع الحيوان مثل هذه العقول الفاسدة لما سعى ولما تحرك حتى تغوله الغوائل وتذروه الرياح ! ولكن حكمة الله اقتضت أن يُخْلى بين هذه الحيوانات وبين غريزتها وألا يبتليها بما ابتلى به هؤلاء العقلاء من الناس، لتعيش وتتوالد وتتكاثر، وتسعى سعيها فى الحياة وتأخذ مكانها من نظام الكون وعمرانه ! !

وماذا يقال لهؤلاء العقلاء الذين أخطأهم التوفيق فخالفوا سنة الحياة وخرجوا على طبائع الأحياء ! ؟

إن الذين يقولون هذا القول عن الدعاء فى وجه القضاء والقدر يقولونه فى كل سبب من الأسباب التى تتطلب منهم عملا أو قولا .. فمنهم من يقول : لم أعمل ؟ ولم هذا العناء وهذا الجهد ؟ وما محصل هذا ؟ وليس لى إلا ما قضى به الله وقدّره ؟ ومنهم من يقول : إنه سوء ظن بالله أن أفكر أو أقدر أو أعمل للغد حساباً .. ماذا أترك إذن لتدبير الله وحكمته ؟ ومنهم من يقول ويقول الكثير من هذا الهذيان والهراء !

وطبيعى أن هذا الموقف السلبى فى الحياة خروج سافر على سنة الحياة، ومصادمة وقاح لنظام الكون، وتعطيل مميت لما أودع الله فى الكائنات من ملكات وقوى تحصل بها حظوظها فى الحياة، وتستشعر بها وجودها بين الكائنات ! إن البذرة لتغوص فى أعماق الأرض باحثة لتجد غذاءها وتثبت جذورها، فإن وقف فى طريقها حصاة تجنبتها ودارت حولها لتصل إلى اللين الرخو الذى يناسب

طبيعتها .. هذا فى أدنى الأحياء مرتبة . . فكيف بالإنسان الذى قُدِّر له أن يكون أكمل الأحياء ، وسيدها بما أودع الله فيه من عقل استأهل به أن يكون خليفة الله فى الأرض ؟

ماذا يقال لهذا الإنسان الذى أنكر عقله ، وتنكر لطبيعته ، واستسلم لداعى البلادة والخمول ، وانضم إلى « تنابلة السلطان » وقد ماتت فيه كل رغبة وسكن فيه كل حس ؟

إن هذا التفكير المريض إنما هو دعوة ماكرة من الدعوات التى تسلطت على المجتمع الإسلامى من أعداء الإسلام والمتربصين به : ليعزلوا جماعة المسلمين عن الحياة، وليقتلوا فى نفوسهم نوازع السعى والعمل ، ليخلو لهؤلاء الأعداء وجه الحياة وليبسطوا أيديهم عليها !! وقد كان .. فأثمرت هذه الدعوة ثمرتها ، وآتت أكلها . . فزحفت على المجتمع الإسلامى علل وأدواء امتصت دماء الحياة منه، ومكنت لأعدائه من التسلط عليه والاستبداد به أزماناً متطاولة .

إن الباب الذى دخل منه الاستعمار على دولة الإسلام هو هذا التسليم الذليل لواقع الحياة . الذى كان جزءاً دخيلا من معتقدنا الدينى فترة طويلة من الزمن . . هذا التسليم الذى يحملنا على الرضا بكل شيء .. وحسبنا أن نقول فى وجه كل مصيبة : هذا ما قضى الله وقدر !! نقولها ويد الظالم مسلطة علينا، وسلطان المستعمر متحكم فينا : دون أن ننكر منكراً ، أو ندفع مكروهـــا .. حتى قامت فينا دعوات المصلحين ، فكشفت هـذا العمى عن القلوب ، وأزاحت هذه

الغشاوات عن الأبصار ، فعرفنا طريق الحياة ، وسلكنا مسالك العاملين فيها .

***

ومع هذا فما زال الكثير منا يعيشون فى هذه « الفلسفة المريضة » .. فلسفة العجز ، والتواكل والموات !

ليس هذا ديناً ولا تديناً ..

وأى دين هذا الذى يدعو الناس إلى ترك العمل ، وإبطال الأسباب المؤدية إلى الغايات ؟ إن لكل شىء أسبابه التى لا يتم إلا بها ، ولا يتوصل إليه إلا عن طريقها .. وتعطيل هذه الأسباب تعطيل لكل ثمرة .. إن الثمرات وليدة الأعمال .. وهيهات أن يكون ثمر بغير عمل !

والدعاء سبب من الأسباب التى تتحقق بها أمور وتُقْضَى بها حاجات .. فكيف نتخذ القدر ذريعة لإبطال هذا السبب وتعطيله!

إن أنبياء الله ورسله — صلوات الله وسلامه عليهم — وهم أعرف الخلق بربهم ، وأوثقهم صلة به واعتمادا عليه ، ورضاء بقضائه وقدره ، كانت حياتهم دعاء موصولا ، ومناجاة دائمة لله رب العالمين .. يدعونه فى السراء والضراء ، ويضرعون إليه فى السر والعلن .. وقد ذكر القرآن الكريم « بعض هذه المواقف الخاشعة الضارعة .. فكان لكل نبى مواقف دائبة متصلة يناجى فيها ربه ويدعوه

فى السراء والضراء، فى السر والجهر . . : آدم عليه السلام يقع فى الخطيئة ، ويأكل من الشجرة المحرمة فيدعو ربه تائباً مستغفراً : «ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» وكذلك نوح ، وإبراهيم ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وعيسى ، وذكريا ويحيى .. وهذا خاتم النبين محمد كان أكثر أنبياء الله دعاء وتضرعا .. فى قيامه وقعوده ، وفى ركوعه وسجوده ، وفى يقظته وعند مضجعه .. وفى كل نعمة وعند كل مصيبة .. وفى كل حال من أحواله لا يغفل عن التضرع والدعاء ، حتى لقد جمعت كتب السنة سجلا حافلا من جوامع كلم النبي، وروائع أدبه فى مناجاة ربه ودعائه.

فكيف إذن يصح فى دين مسلم أن الدعاء يعارض حقيقة التسليم لله والرضاء بقضائه وقدره؟ إن ذلك — كما قلنا — فلسفة مريضة ، ومنكر من القول وزور » لا يرضى به دين ، ولا ينزل على حكمه عاقل من المؤمنين وغير المؤمنين !

وقد فضح ابن تيمية هذا المذهب المنكر الخبيث.. وفضح أهله..

يقول ابن تيمية[1] :

«وأما قولهم: — يريد القائلين بالجبر — إن الأمور قد فرغ منها فهذا نظير ما قاله بعضهم فى الدعاء إنه لا حاجة إليه ؛ لأن المطلوب إن كان مقدرا فلا حاجة إليه ، وإن لم يكن مقدرا لم ينفع . . وهذا القول من أفسد الأقوال شرعا ، وعقلا . . وهو أن هؤلاء

---

(١) انظر كتاب الأعمال القلبية لإبن تيمه ص ١٤ وما بعدها

ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة أيضاً تكون من العبد، ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم، ولهذا كان مقتضى قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية.. وقد سئل النبي ﷺ عن هذا مرات فأجاب بما أخرجاه في الصحيحين عن عمران بن حصين قال: قيل لرسول الله ﷺ: أعُلِمَ أهلُ الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قالوا: فقيم العمل؟ قال: كل مُيَسَّرٌ لما خُلق له».. وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة فيها رسول الله ﷺ. فجلس ومعه مخصرة، فجعل ينكث بالمخصرة في الأرض ثم رفع رأسه وقال: مامن نفس منفوسة إلا وقد كُتب مكانُها من النار أو الجنة، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة» — فقال رجل من القوم: يا نبي الله: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل. فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقاء ليكونن إلى الشقاوة؟ قال: «اعملوا، فكلٌّ ميسر لما خُلق له، أما أهل السعادة فيُيسرون للسعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة، ثم قال نبي الله ﷺ: «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى».. وروى الترمذي: أن النبي ﷺ سئل فقيل له: يارسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها ورُقىً نسترقي بها، وتُقىً نتقيها[1] أترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله».

---

(١) التقى. ما يتخذ من أسباب الوقاية لكل أمر

ويقول ابن تيمية : والمقصود هنا أنه ﷺ بيَّن أن العواقب التى خلق لها الناس من سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التى يصيرون بها إلى ذلك ... وكثير من المشائخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر الله به ، ونهى عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل . . ويحسب أن قول القائل : ينبغى للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدى الغاسل — يتضمن ترك العمل بالأمر والنهى ، حتى يترك ماأمر به ويفعل مانهى عنه ، وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذى يَفْرِق به بين ماأمر الله به وأحبه وأرضاه ، وبين مانهى عنه وأبغضه وسَخِطه ، فيسوى بين مافرق الله بينه . . قال تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات . . سواءً محياهم ومماتهم ؟ ساء مايحكمون » وقال تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم ! كيف تحكمون . . » ؟

ثم يقول : « ولكثرة الغلط فى هذا الأصل نهى النبى ﷺ عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذى ينفع العبد .. روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خير .. احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجزْ ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا!! ولكن قل قَدَّر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان... ، وفى سنن أبى داود

أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما ، فقال المقضيّ عليه « حسبي الله ونعم الوكيل » فقال النبي ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكَيْس[1] ، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » فأمر النبي ﷺ المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله ، وهذا مطابق لقوله تعالى : إياك نعبد وإياك نستعين وقوله : « فاعبده وتوكل عليه » فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته .. » ا . هـ[2]

ففي قول النبي الكريم : « إن الله يلوم على العجز » لفتة رائعة من لفتات النبوة الحكيمة إلى ما ينبغي أن يكون من المرء في مواجهة الحياة من مغالبة ومدافعة لكل ما يعترض سبيله أو يعوق سيره .. فهذا الرجل الذى استسلم لخصمه ، وترك له مجال القول في مجلس القضاء أمام رسول الله ، ولم يحاول أن يدلى بحجته ، أو يدحض حجة خصمه ؛ حتى تمكن منه ، وأخذ الحجة عليه ، فقضى رسول الله لخصمه — وربما كان هذا الخصم مبطلا — ولم يجد المقضيّ عليه إلا أن يستسلم قائلا « حسبي الله ونعم الوكيل » .. فلم يرض الرسول الكريم عن هذا الاستسلام الذليل .. وألقى بالملاءمة على الرجل لأنه لم يدافع عن نفسه ولم ينهض للرد على خصمه ، وسكت حتى قُضِيَ عليه — فنطق بما كان ينبغي أن ينطق

(١) الكيس : من الكياسة وهى استعمال الحكمة ومعالجة الأمور بمهارة وذكاء .

(٢) التحفه العراقيه فى الأعمال القلبيه لابن تيميه . ص ١٤ ومابعدها .

به بعد أن يؤدى ما يجب عليه . و « حسبي الله ونعم الوكيل » هى العزاء عند كل مصيبة ، وهى ملاذ المؤمن عند كل مكروه ، ولكن بعد أن يكون المرء قد استنفد جهده فيما يَعْـرِض له ،وأخذ بكل سبب يراه نافعاً فى الأمر العارض .

فى الحديث الشريف . « إن الله يقضى بالقضاء فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » فالرضا إنمـا يكون بعد وقوع القضاء وبعد استنفاد الجهد .

* * *

إن الدعاء لا يعارض القضاء ولا ينبىء عن ضعف فى الإيمان بالله والرضا بقضائه ، وإنما هو سبب من الأسباب التي أمرنا أن نأخذ بها فى حياتنا ، ونجرى عليها فى تصرفاتنا مع الأشياء .

إننا لا نكشف عواقب الأمور قبل أن تقع . وذلك لحكمة أرادها الحكيم الخبير ، لنعمل ونسعى ولتعمر الحياة بسعينا وعملنا . . ولو تكشفت لنا عواقب الأمور قبل وقوعها ما كان هناك ما يدعونا إلى السعى والعمل . . لأننا إنما نسعى لإدراك غايات نقدرها ونرجوها ؛ فإذا كانت هـذه الغايات حاضرة فى أذهاننا على صورتها التى ستقع عليها — إن خيراً وإن شراً — فإنه لا يبقى لنـا بعد هذا سبيل إلى محاولة نحاولها فى شأنها . .

والأمثلة لهذا كثيرة بين أيدينا وفى واقع حياتنا . . فالأمور التى جرت مجرى العادة والمألوف والتى أصبحت خاضعة لقواعد

مضبوطة لا تحتاج إلى اجتهاد فى توجيه سيرها.. مثل هذه الأمور لا تنزع نفوسنا إلى عمل يتصل بها بل ندعها وشأنها.. فالساعة فى يدى مثلا تقدر الوقت من غير أن أبذل أى جهد فى سيرها .. لأنى أعرف — مقدما — أنها تقطع الوقت دون حاجة إلى تدخل منى .. إنها تعرف طريقها .. هذا على خلاف السيارة مثلا، فإنى لو بدأت أحركها الى مكان ما فلا بد أن أقوم عليها ، وأن أوجه سيرها، وأتوقى مايعترض طريقها من سيارات ومشاة وغير هذا ولو تركتها تنطلق وحدها دون أن أقوم عليها لحطمت الكثير من الناس ثم تحطمت .

* * *

وليس الدعاء إلا طلب الغوث والنجـــدة ممن إليه الغياث والملجأ .. فمن الضلال والخذلان معا أن يقع الضر بالإنسان ثم لا يمد يده إلى كاشف الضر ، ومن الضلال والخذلان معاً أن يطمع المرء فى خير ثم لا يبسط يده إلى من بيده الخير كله .

وهل يتصور أن عاقلا من الناس تعلق النار بجسده أو متاعه ثم لا يطلب من الناس من يعينه على دفع هذا المكروه ؟

وهل يتصور أن عاقلا من الناس يرى أبواب الخير ثم لا يطرق بابا من تلك الأبواب ولا يهتف بالقائمين عليها أن يفتحوا له ؟

إن حياتنا قائمة فيما بيننا على أن نعين ونستعين ، ونأخذ ونعطى .. فكيف يكون هذا شأننا مع الناس ثم يكون لنا خلاف هذا الشأن مع رب الأرباب وقيوم السموات والأرض ومن بيده الخير كله ،

وإليه مقاليد كل شيء ؟ كيف يقف العبد هذا الموقف السلبي من ربه فلا يناديه ولا يناجيه ولا يفزع إليه فى مكروب ولا يلجأ إليه فى مطلوب ؟ أ أستقلال عن رب الأرباب واستغناء عن عونه وفضله ؟ إن ذلك هو الخسران المبين والضلال البعيد !

اندع هؤلاء الفلاسفة أو « التنابلة » وما اختاروا . . « كل امرىء بما كسب رهين » .

أما نحن فإنا على ما عليه أتباع محمد .. نؤمن بقضاء الله وقدره ، ونؤمن بأن الدعاء من قضاء الله كما يقول الرسول الكريم .. ونؤمن بأن الدعاء قربان يتقرب به المؤمن إلى ربه فيستأهل رضاه ، وينزل منازل رحمته ولطفه فيما قضى وقدر !

يقول النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « لا ينفع حذرٌ من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن الدعاء ليرد القضاء المبرم ، وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلايزال أحدهما يدفع صاحبه إلى يوم القيامة » .. آمنت بالله ربا . . هذا قضاء الله البلاء لا مرد الله ، فيلقاه الدعاء المستجاب يحاوره ويداوره فلا يصاب المبتلى بمكروه ، وذلك رحمة الرحمن ولطف اللطيف الخبير والثمرة العاجلة للدعاء !

روى عن سلمان الفارسى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يردّ القَضاءَ إلا الدعاءُ ، ولا يزيد فى العمر إلا البِرُّ »

وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض »

ويقول سبحانه وتعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » . .

فالدعاء عبادة أيا كان الدعاء . . لإصلاح دنيا أو دين . . إنه خضوع لله ، وإذعان لقدرته ، وطمع فى رحمته ، ورجاء فى فضله . . وهذا هو جوهر الإيمان بالله والإقـــرار بالعبودية للمعبود ذى الجلال والإكرام

الدعاء والتوكل على الله :

وقد يقع لبعض الناس هذا الفهم الخاطىء فى التوكل حين يخيل إليه أن التوكل على الله لا يكون كاملا إلا إذا عطل المرء كل مدركاته وحواسه ، وسكن سكون الجماد . . فكل شىء إلى الله ، وكل خير أو شر بقضائه وقدره . . فلم يجهد نفسه ؟ ولم يشغل أجوارحه ؟ إن ذلك عبث لا طائل تحته . . ولن يقع إلا ما سبق به القدر !

هذه كلمات الحق يُراد بها الباطل . . وقد ضل بها كثير من الناس وخُدعوا عن طريق الحق ، وقعدت بهم هممهم الفاترة عن العمل والسعى فى كل وجه من وجوه الحياة . .

إنها فلسفة تنضح بها النفوس المريضة ، وتهذى بها العقول الفارغة . . وإلا فكيف يستقيم هذا الموقف السلبى مع ما يأمرنا الله به من

أعمال ، وما يفرض علينا من تكاليف ؟ إن هذا التفكير السقيم قد يمتد إلى أن يسقط عن الإنسان ما أمر الله به من عبادات وطاعات فإن منطق هذا التفكير يقول : ماجدوى العمل وقد سبق السيف العذل ؟ إن ماقدر كائن لامحالة : وخير المرء أن يسلمّ ويستسلم راضياً بما وقع وما سيقع !

وحقيقة التوكل غير هذا . . إن التوكل على الله قوة دافقة للهمم ، باعثة للعزائم ، مجددة للآمال . . معينة على النجاح مدنية من الخير . .

فالمتوكل على الله يعمل فى ظل من رعايه الله وعنايته ، وفى طريق من هدايته وتوفيقه . .

قال سبحانه وتعالى « ومن يتوكل عل الله فهو حسبه » . وقال النبى الكريم : « إذ قال العبد بسم الله توكلت على الله ولا قوة إلا بالله » قال الحق سبحانه وتعالى : « هُديت ، وكفيت »

فالتوكل لا يعطل الملكات التى وهبها الله لنا ، ولا يرفع عن المرء التكاليف المنوطة به . . قال تعالى « فاعبده ، وتوكل عليه » فقد أمر بالعبادة والتوكل معاً . : والدعاء عبادة من جهة وعمل من من جهة أخرى يُنال به الخير ويُصرف به الشر ، لا يحجبه التوكل على الله ولا يعطله بل يزكيه ويرفعه إلى منازل الإستجابة والقبول .

فالتوكل السلبي يُسْلم إلى التواكل والعجز ويفتح باب القدر ،

ويعطل ملكات الإنسان ، ويصرفه عن كل ما من شأنه أن يثمر له ثمر نافعاً .

والوضع السليم الذى ينبغى أن يكون عليه المسلم فى حياته أن يعمل ويتوكل ، أن يأخذ فى الأسباب ، وأن يجعل إلى الله ما يذر من حب ، إن شاء نماه وأزهره وثمره ، وإن شاء ساق إليه من الآفات ما يذهب به . . « كلٌّ من عند الله »

يقول ابن تيمية . .

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه على أربعة أقسام :

قوم ينظرون الى جانب الأمر والنهى والعبادة والطاعة شاهدين لألوهيته سبحانه الذى أمر أن يعبدوه ولا ينظرون الى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة — وهو حال كثير من المتفقهة المتعبدة ، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان ... والاستعانة بالله والتوكل عليه ، والالتجاء إليه والدعاء له هى التى تقوى العبد وتيسر له الأمور ، ولهذا قال بعض السلف : « من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » ...

وقسم ثان يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ، ويستعينون بها على أهوائهم وأذواقهم غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته ، وهذه حال كثير من المتفقرة والمتصوفة . . .

وهؤلاء كثيراً ما يُسلبون أحوالهم، وقد يعودون إلى نوع من المعاصى والفسوق .

القسم الثالث : وهو مَنْ أعرض عن عبادة الله واستعانته ، فهؤلاء شر الأقسام .

والقسم الرابع : وهو القسم المحمود وهو حال الذين حققوا : إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله تعالى . « فاعبده وتوكل عليه » فاستعانوا به على طاعته وشهدوا أنه إلههم الذى لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه . . . .[1]

وقال الغزالى : قد يُظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاه وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين . فكيف يُنال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ؟ بل إنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده ، وسَعىُ العبد باختياره إما يكون لجلب نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض فمقصود حركات العبد لا يعد هذه الحالات الأربع التى هى جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه »[2]

---

(١) التحفة العراقية فى الأعمال القلبية ص ٢٢ وما بعدها

(٢) الإحياء للغزالى ص ٢٥٣ من الجزء الرابع

الفصل الخامس

الدعاء والاستجابة

هل كل دعاء مستجاب ؟

الإجابة على هذا السؤال هى موضوع الفصل من الكتاب . . وذلك أن مفهوم الدعاء كثيرا ما يختلط على بعض الناس فيدخل عليه لذلك ما يدخل من وساوس وظنون تضطرب لها عقيدته ، ويفسد بها إيمانه . .

يسمع المسلم ويقرأ قوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » ويسمع المسلم ويقرأ قوله تعالى : وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب . . أجيب دعوة الداعى إذا دعانى . . » فيفهم من ذلك أن الله قد أمر بالدعاء ، ووعد بالإجابة . . ووعد الله حق لا شك فيه . وإذاً فليدعُ المسلم ماشاء من الدعاء . . ولينتظر — على ثقة — تحقيق ما دعا به !

ذلك هو المفهوم الذى يدركه المسلم من منطوق الآيتين الكريمتين فى صراحة ووضوح ، وقد تولى الرسول الكريم شرح هذا المعنى ، وتوضيحه ، وتوكيده فى أكثر من حديث :

عن قتادة عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : أنا عن ظن عبدى ، وأنا معه إذا دعانى »

وعن سلمان الفارسى عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين »

فهل يبقى بعد هذا ظل من الشك فى قلب مسلم أنه إن دعا فلن يرد له دعاء ؟ وكيف ، وآيات الكتاب صريحة ، وحديث الرسول بيّن واضح بأن دعاء المسلم مستجاب فى كل حال ، وعلى أية حال ؟

كل دعاء مستجاب !

نعم ذلك حق لا مِرْية فيه !!

ولكن كيف هذا ، ونحن كثيرا ما ندعو ونُلِحّ فى الدعاء ولا نرى لما ندعو به أثرا ؟

هنا موضع النظر ومدار البحث ! فنحن أمام أمرين :

اولهما : أنَّا إذا دعونا استجاب الله لنا ، كما صرح بذلك القرآن ونطقت به السّنة

وثانيهما : أننا ندعو ، ولا نجد فى كثير من الأحيان جوابا لما ندعو به !

أمران متناقضان . . فما مصرف الرأى ليرتفع هذا التناقض وتزول آثاره ؟

والمؤمن الصادق الإيمان يستطيع بإيمانه أن يصرف كل ما من شأنه أن يثير فى نفسه شيئا من الشك فى صدق ما وعد الله به من

استجابة دعاء الداعين . . . وإذن فلا تناقض ولا شبهة عنده . .
وليس للمسألة إلا وجه واحد وهو أن الله يستجيب لكل ماندعوه
به . . هذا ما يجب أن يتقرر فى نفس كل مؤمن قبل أن يدعو ،
وبعد أن يدعو ، ودون أن يتطلع إلى نتائج دعائه، ما وقع منه ومالم
يقع ! ليؤمن أولا أن دعاءه قد أجيب . فإذا آمن بهذا واطمأن إليه
كان أهلا لأن يعى حقيقة الدعاء ، وأن يدرك المفهوم الصحيح
للاستجابة التى وعد الله بها من يدعونه ويطرقون أبواب رحمته !

ولبيان هذا نقول :

أولا : الذى لا شك فيه أن الإنسان يقصد بدعائه جلب خير
أو دفع ضر . . ذلك شأن كل إنسان، إلا إذا كان مسلوب العقل ،
ومن كان كذلك فلا معوّل على ما يقول أو يعمل . وإذن فمطلوب
الدعاء هو تحقيق مصلحة يراها الدعى ، ويرى فى استجابة دعائه
الخير كل الخير . . ولكن أذلك هو محصّل الخير للإنسان ؟ وهل
يدرك المرء عواقب أموره ، ويعرف نتائج البذر الذى يبذره
والثمر الذى يجنيه ؟ ومن يدرى ؟ فقد يكون فيما دعا به من خير
هو شر محض لو تحقق له واستبانت عواقبه . . فما أكثر ما نرغب
فى شىء ونحرص على الحصول عليه بكل ما نملك من حول وحيلة
حتى إذا ماعشنا فيه زمنا تكشف عن شر ، وصرّح عن حسرة
وندامة . . يقول الله سبحانه وتعالى : «ويدعو الإنسان بالشر دعاءه
بالخير . . وكان الإنسان عجولا »!

وإذن فليس كل ما ندعو به فيه مصلحة وفيه خير لنا ، ولو أطلعنا الغيب لصرفنا كثيراً مما ندعو به عن وجهه !!

والله سبحانه وتعالى لطيف بعباده واسع الرحمة . . فإذا دعاه عبده بما يعلم — سبحانه — أنه شر استجاب الله له دعاءه ؛ ولكن على الوجه الذي ينفعه . . فما كان الله سبحانه وتعالى ليضيع دعاء من يدعوه وعبادة من يعبده أو يضارّه بما دعا وبما عبد .

يقول النبي الكريم : مامن مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم أو قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها ثلاث خصال : إما أن تعجّل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . . قالوا إذن نكثر ، قال : «الله أكثر» .

وعن عُبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال . « ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عزوجل دعوة إلا أتاه الله إياها أو كف عنه من السوء مثلها ، مالم يدع بإثم أو قطيعة رَحِم »

تلك هي سبيل دعوة المسلم : إما أن تجاب له كما طلب ، وإما أن يُدفع عنه من السوء مثلها ، وإما أن تدخر له في الآخرة ثواباً كثواب العبادات والقربات . .

وروى عنه ﷺ أنه قال « يقول الله للعبد يوم القيامة : أكنت ترى لبعض دعائك الإجابة ولا ترى لبعضه ؟ فيقول نعم ، فيقول له : أَمَا إنك مادعوتني بدعوة إلا وقد استجبتُ لك فيها . . أليس

دعوتني يوم كذا وكذا فرأيت الإجابة ؟ فيقول نعم : ويقول ودعوتني يوم كذا وكذا فلم تر الإجابة ؟ فيقول : نعم ، فيقول : فإني ادخرتها لك في الجنة . فلا يبقى له دعوة إلا بيّنها له ، حتى يتمنّى المؤمن أن دعواته كلها كانت ذخائره في الآخرة »

ولن ينتفع المؤمن بدعائه على هذا الوجه إلا إذا كان خالصاً لله ، فيه خشوع ، وتعبد وتضرع .. فيكون سبيله سبيلَ العبادة المقبولة عند الله ، تنفع في الدنيا وفي الآخرة جميعا .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن الدعاء ينفع مما نزل ، ومما لم ينزل ، وإن الدعاء ليلقى البلاء فيعتلجان[1] إلى يوم القيامة » .

أرأيت كيف يفعل الدعاء عند الله ؟ إنه يرد القضاء ! ولا شيء غير الدعاء يتصدى لقضاء الله ، ويعتلج به !

الدعاء يشفع عندالله فيلطُف بعبده فيما رماه به قضاؤه .. فإذا انطلق سهم القضاء تلقاه الدعاء ، يحاوره ويدافعه إلى يوم القيامة ، فلا يصل إلى صاحبه !

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدعاء ينفع مما نزل ، ومما لم ينزل ، وإن الدعاء ليرد القضاء المبرم ، وإن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فلا يزال أحدهما يدفع صاحبه إلى يوم القيامة » .

---

(١) أي يتصارعان .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد العمرَ إلا البِرّ » .

ونلمح هذا فى قوله تعالى عن يونس عليه السلام : « فالتقمه الحوت وهو مُليم ، فلولا أنه كان من المسبِّحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » فلولا الدعاء الذى دعا به يونس فى جوف الحوت لنفذ فيه قضاء الله، ولما خرج من جوفه ، ولكان بطن الحوت هو قبره. ولكن شاء الله أن ينطق لسانه بالتسبيح « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .. فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ » .

وإذن فكم من بلاء دُفع بالدعاء ولا نراه ؟ إننا نرسل الدعوات إلى الله وننتظر إجابتها فى واقع حياتنا التي نحياها ، ونغفل عما وراء هذا الواقع الملموس ولا نحسب حسابا لهذه المعارك الدائرة بين دعائنا وبين ما يريد قضاء الله بنا ! ولو اطلعنا الغيب لرأينا بلاء كثيرا قد دُفع بهذا الدعاء الذى ندعوه ولا نرى له إجابة واقعة نجدها ماثلة بين أيدينا !

فهل يبقى فى نفس مؤمن شك بعد هذا فى أن الله سبحانه وتعالى يستجيب كل دعاء ندعوه به ؟ وأنه قد وعد ووعده الحق : ادعونى أستجب لكم » .. فليكثر المؤمن من الدعاء ، ولا يبحث عما وراء هذا الدعاء من خير عاجل ، وليكن على يقين بأن الله سبحانه قد

سمع له ، ووضع دعاءه بالموضع الذى هو خـــير له فى الدنيا والآخرة جميعاً .

والذى يفسد على المؤمن دعاءه أن يجعل همه دائماً متوجها إلى أمور الدنيا وإلى العاجل منها . . فهو إن دعا فإنما يدعو بما يحصِّل له المال والجاه ، والصحة، وغير ذلك مما يتنافس فيه الناس من أمور الدنيا وماتتعلق به آمالهم من تفاخر وتكاثر بالأموال والأنفس ، فإذا لم يحقق لهم الدعاء ما يرجون من هذه الأمور سَخِطوا ، وزهدوا فى الدعاء ، وساء ظنهم فى جدواه ، بل وضعف إيمانهم بالله وبفضله وحكمته ! وغفل هؤلاء أن الله إذا أحب عبده لم يشغله بالدنيا ، ولم يكثر له مما يفتنه فيها من مال وبنين . . وأنه قد يدعوه ويطلب هذه المفاتن فيجعل الله سبحانه وتعالى جزاء هذا الدعاء ذخراً له فى الآخرة ، وابتلاء بالنقص فى الأموال والأنفس والثمرات . . فينتقل بفضل هذا الدعاء إلى منازل المؤمنين الذين يقول الله فيهم « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . . وبشر الصابرين . . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

لهذا كان أفضل الدعاء ما يسأل المرء به ربَّه الإعانةَ على مرضاته وطاعته ..وذلك ما علمه النبى ﷺ لمُعاذ بن جبل فقال : « يا مُعاذ ،

والله إنى لأحبك. فلا تنس أن تقول فى دُبر كل صلاة: اللهم أعنّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك!»

قال ابن تيمية رضى الله عنه: «تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاة الله، ثم رأيته فى الفاتحة: «إياك نعبد، وإياك نستعين»».

ويقول ابن القيم [1]: «إن الله سبحانه وتعالى يسأله من فى السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويُمد هؤلاء وهؤلاء.. وأبغض خلقه عدوّه إبليس، ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه إياها ومتعه بها [2]، ولكن لما تكن عوناً له على مرضاته كانت زيادة له فى شقوته وبعده عن الله وطرده عنه.. وهكذا كل من استعان به — سبحانه — على أمر وسأله إياه ولم يكن عونا على طاعته كان مبعداً له عن مرضاته قاطعا له عنه!

ثم يقول: «وليتأمل العاقل هذا فى نفسه وفى غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه.. بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظا لا بخلا، وهذا إنما يفعله

---

(١) التفسير القيم، لابن القيم ص ٦٩

(٢) قال: رب فانظرنى إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم..»

يعبده الذى يريد كرامته ومحبته ،ويعامله بلطفه فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ، ويراه يقضى حوائج غيره فيسىء ظنه بربه . . !

وإنه لخير للمرء أن يعلق دعاءه بمشيئة الله وإرادته ، بأن يدعو فيقول : إن كان فى هذا رضاؤك . أو إن كان فى هذا خير لى فى دينى ودنياى .. إذ أنه قد يدعو الإنسان بما يقدّر أنه خير والشر كامن فيه ! فليجعل الإنسان دعاءه عبادة خالصة لله ، وليجعل مطالبه إلى الله يجيب منها ما ينفع ، ويصرف منها ما يضر .

الدعاء المستجاب

وإذ عرفنا أن كل دعاء ندعو به يقع على ثلاثة وجوه : إما أن تعجل إجابته فى الدنيا ، وإما أن يصرف من الشر مثله ، وإما أن يدخر ثوابا فى الآخرة . . وذلك ما أخبر به النبى الكريم فى قوله : « ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا أتاه الله إياها أو كشف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » وفى قوله : « ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم أو قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » .

وإذن فكل مسلم مستجاب الدعوة على أى وجه من وجوه ثلاثة .. ما لم تحمل الدعوة إثما أو قطيعة رحم !

ولكن هناك دعوات لا تُرد بل تجاب على الوجه الذى دعا به أصحابها .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى يتقبل هذه الدعوة من صدور مؤمنة ، ونفوس طاهرة زكية ، لا تذهب بدعائها مذهب الفساد أو الإفساد فى الأرض . .

وقد أخبر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى،قد استجاب دعاء أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، فاستجاب لنوح فى قوله : قال تعالى « ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنـــين ، إذكانت دعوة نوح خالصة لله ، لخير البشرية وتخليصها من الضالين الغواة . . وكانت دعوته هى :

« وقال نوح رب لاتذرْ على الأرض من الكافرين ديّارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّارا » واستجاب الله سبحانه لزكريا عليه السلام إذ قال : « رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه .. إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رَغَباً ورَهَباً ، وكانوا لنا خاشعين » .. فمن هذين المؤمنين الصالحين ولد يحيى ، ليكون نبياً كريماً . . فكان فى استجابة دعوة زكريا هذه الرحمة المرسلة من السماء هدى ونورا للناس !

واستجاب الله لنبيه أيوب : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضُر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى للعابدين » فهذا نبى

كريم امتحنه الله سبحانه أقسى امتحان .. فى جسمه وماله ، وولده وامتد هذا الإمتحان سنين عددا ، فما جزع وما يئس من روح الله وصبر صبرْ أولى العزم من الرسل ... ثم مع هذا البلاء الغليظ لم يصارح ربه بأن يكشف هذا البلاء فقال فى أدب رفيع « رب إنى مسنى الضر .. وأنت أرحم الراحمين » .. فاستجاب الله له وكشف ما به من ضر ، رحمة من الله ، وذكرى للعابدين الذين يسيرون فى هذا الطريق . . طريق الإيمان والصبر « رحمة منا وذكرى للعابدين » .

واستجاب الله ليوسف عليه السلام فصرف عنه كيد النسوة المتآمرات على عفته وطهره .. «قال : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه، وإلا تصرفْ عنى كيدَهن أصبُ إليهن ، وأكن من الجاهلين، فاستجاب له ربه . فصرف عنه كيدهن .. إنه هو السميع العليم »

واستجاب الله ليونس .. فأخرجه من بطن الحوت : « فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين[1] » . . ويونس لم يدع دعاء صريحا طالبا النجاة من جوف الحوت ، ولكنه كان يسبح بحمد الله ، ويستغفر لذنبه : « فنادى فى الظلمات : أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » . . ولا شك أن التسبيح والاستغفار عبادة ، ودعاء معاً ..

(١) اليقطين : ما لا ساق له من النبات ومنه نبات القرع .

روى أن عمر بن الخطاب استسقى للمسلمين عام الجدب ، ويقال له عام الرمادة لما اكتسب به الأرض من غبرة الجدب ، فصعد المنبر قابضاً على يد العباس عم النبي ، فكان دعاؤه الاستغفار ، فقيل له: إنك لم تستسق ، وإنما كنت تستغفر ؟! قال قد استسقيت بمجاديح[1] السماء! يشير بهذا إلى قوله تعالى: استغفروا ربكم.. إنه كان غفارا.. يرسل السماء عليكم مدرارا ».

أولئك رسل الله . . يدعون فيستجاب لهم . . ومن أكرم على الله من رسله ؟ ومن أعرف بما يتقبل الله من الدعاء من رسل الله وأنبيائه ؟ إنهم حين يدعون إنما يدعون بالخير والرحمة التي تفيض على من حولهم من الناس .

وهناك من عباد الله المؤمنين من صفت أنفسهم فاتصلت أسبابها بأسباب السماء ، فإذا دعوا كان دعاؤهم مستمداً من هذا النور العلوي ، لا يضل ، ولا يضيع .

يقول النبي الكريم : « رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه » هكذا يعلو الإنسان في منازل الرحمة والقبول عند الله حتى إنه ليقسم على الله فيبرّ الله قسمه !؟ منزلة كريمة رفيعة يحب الله النازلين فيها ويوردهم موارد كرمه وفضله .

وقد عرفنا من هؤلاء سعد أبي وقاص فقد كان مستجاب الدعوة ببركة دعاء رسول الله له ، وكذلك منهم البراء بن مالك أخو أنس بن

---

(١) المجاديح جمع مجداح وهو ساحل البحر ومجاديح السماء الأنواء التي يسقط المطر عند حدوثها .

مالك رضى الله عنهما ، وكان المسلمون إذا اشتدت عليهم الحرب فى قتال المشركين يقولون : يا بَرَّاء أقسم على ربك ، فيقسم على ربه فينتصرون !

وهناك دعوات لا ترد . . منها :

١ — دعوة المظلوم :

فالمظلوم إنسان استُضعف فأخذ بيد القهر والعدوان من قوى مستبد، اعتز بقوته ونسي قدرة الله ، واستطال بسلطانه وغفل عن سلطان الله والله سبحانه وتعالى غيور على مقدساته أن تمس ، وعلى حرماته أن تستباح . . وعلى صفاته أن يَشْركه فيها غيره .. فكان سبحانه وتعالى هو الذى يتولى الانتصاف للمظوم والأخذ له من ظالمه ، فى الحديث القدسى : يقول الله عز وجل للمظلوم « وعزتى وجلالى لأنصفنك ولو بعد حين » ! !

ولهذا أباح الله المظلوم ما لم يبحه لغيره من الناس . . فأباح له أن يجهر بالسوء من القول فيمن ظلمه ، وأن يرفع صوته إلى الله بصب اللعنة عليه والانتقام منه ، وذلك تشنيع على الظالم وفضح له بين الناس . .

روى أن رجلا شكا جاره إلى رسول الله وما كان يلقى من سوء جواره ، وفظاظة خلقه . . قال يا رسول الله : إن لى جارا يؤذينى، فقال له النبى ﷺ . « أخْرِجْ متاعك فضعه على الطريق ! فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق . . فكان كل من مر به

يقول: مالك؟ فيقول جارى يؤذيني .. فيقول — أى السائل — اللهم العنه، اللهم أخزه .. قال: فقال الرجل — أى الجار — ارجع إلى منزلك، والله لا أوذيك أبدا »!!

إن التشنيع على الظالم وفضحه على الملأ من أنجح وسائل الانتقام منه وعزله عن المجتمع الذى يعيش فيه، ولهذا أباح الله سبحانه للمظلوم أن يجهر بالسوء فيمن ظلمه، قال سبحانه وتعالى: « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من أظلم .. وكان الله سميعاً بصيرا » فليس الجهر ليسمع الله، فالله سبحانه وتعالى سميع بصير، ولكن ليسمع الناس، ولتمتلىء قلوبهم حنقا ومقتا على الظلم والظالمين.

من أجل هذا كانت دعوة المظلوم مستجابة لا ترد، وسهما صائبا لا يخيب .. يقول الرسول الكريم: « اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »!.

ويقول الرسول الكريم أيضا: خمس دعوات لا ترد، دعوة الحاج حتى يصدر[1]، ودعوة الغازى حتى يرجع، ودعوة المظلوم حتى ينتصر، ودعوة المريض حتى يبرأ، ودعوة الأخ لأخيه بالغيب ... »

وقد سئل الإمام على كرم الله وجهه: كم بين السماء والأرض؟ فقال: « دعوة مظلوم » ... يشير بهذا إلى أن دعوة المظلوم هى

(١) حتى يعود من الحج، فهو فى هجرة إلى الله مادام فى الحج.

أقوى قوة فى هذا الوجود تستطيع أن تقطع ما بين الأرض والسماء فى لحة خاطفة، تربط بها ما بين هذين العالمين !!

الدعاء بظهر الغيب : ويقصد به الدعاء الذى يدعو به المرء لأخيه فى غيبته

هذا الدعاء لاشك صادر من قلب سليم وعن نية خالصة .. فما يحرك المرء لسانه بالدعاء فى هذه الحال إلا وفى قلبه حب وإخلاص لمن يدعو له ، لا يبغى بذلك إلا أن يرضى رغبة فى نفسه لاتسكن إلا بالدعاء لمن يدعو له ولا يطيب خاطره إلا إذا وكل إلى الله سبحانه وتعالى جزاءه على مايرى الداعى أنه أهل له .. فقد يفعل المرء فعلا حسناً ينفع الناس فتلهج الألسنة بحمده والثناء عليه والدعاء له ، على غير معرفة سابقة بصاحب هذا العمل ، وقد يأتى امرؤ عملا آثما يضر بالناس فتتأذى النفوس منه ، ويشقى الناس به ، فيكون منهم سخط ودعاء عليه .. نجد هذا فى محيط المجتمعات الصغيرة والكبيرة على السواء ..

فهذا رجل سخى ، طيب العشرة ، يألف الناس ويألفونه .. مثل هذا الرجل إذا ذكر اسمه فى حال من الأحوال ذكر بالحمد والثناء ، ولم يحرم أن يدعو له داع بالخير وحسن الجزاء .

وعلى عكس هذا رجل شحيح ، سليط اللسان ، سىء العشرة .. إذا ذكر ذكر بالسوء ، ولم يحرم دعوة بالشر يرفعها أحد الناس إلى الله انتقاما منه وتَشَفّيا :

والذى يتأمل السبب فى قبول الدعاء هنا يجد أنه مقترن برضاء الله أو سخطه فيمن يوجه إليه الدعاء بالخير أو الشر . . فإن رضا الناس عن إنسان فيه رضا الله ورضوانه عليه ، وفى سخط الناس على إنسان سخط الله وغضبه عليه . .

فإذا رضى الناس عن إنسان رضىً خالصاً مجرداً من الملق والرياء كان ذلك شهادة له عند الله بأنه أهل لرضاه ورضوانه ، . . فإذ دعا الناس له بخير استجاب الله دعاءهم فيه ، وقبل شفاعتهم له ، ولم يرد شهادتهم الطيبة فيه .

وإذا سخط الناس عن إنسان سخطا مجرداً من الهوى ، بعيداً عن الحسد والحقد ، كان ذلك شهادة له عند الله بأنه أهل سوء مستحق لغضب الله ومقته ، فإذا دعوا عليه استجاب الله دعاءهم فيه وأخذه بما دعوا .

كان رسول الله ﷺ بين أصحابه رضوان الله عليهم فمرت جنازة ، فقيل جنازة من هذه؟ فقالوا : فلان ، فأثنوا خيرا ، فقال رسول الله ﷺ : « وجبت » فقالوا يا رسول الله : ما وجبت ؟ قال : الجنة .

ثم مرت بهم جنازة ، فقيل جنازة من هذه ؟ فقالوا : فلان ! فقالوا شراً ، فقال رسول الله ﷺ : « وجبت » فقالوا : يارسول الله ما وجبت ؟ قال : « النار »

رضا الناس من رضا الله . . فمن أحبه الناس لحسن سيرته وكمال خلقه أحبه الله ، وأنزله منازل المكرمين عنده ، وكان حَرِيًّا أن يستجيب الله دعاء الناس له . . فإنه ما استحق أحد حب الناس إلا لما فيه من خير، وأهل الخير جديرون بالخير والإحسان « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ! »

دعوة المضطر : حين تشتد بالمرء الشدائد ، وتهجم الكروب ، تستجيش مشاعره ، وتستكين جوارحه ، وتتصاغر نفسه أمام الخطوب . . فيلجأ بكل كيانه إلى معتصم يعتصم به ، وإلى ملجأ يلجأ إليه . . فإذا كان مؤمناً بالله كان الله سبحانه هو ملجأه ومعتصمه . . يقبل على الله فى خشوع وإخبات واستسلام ، وتلك حالة تصفو فيها نفس المؤمن وترق مشاعره ، فإذا هو رُوح محلق فى سماء الاستجابة والقبول : يقول الله سبحانه وتعالى : « وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ... » وهذا يؤكد ما أشرنا إليه من قبل من أن الدعاء ليس مجرد كلمات تُلْـق ، وإنما هو مشاعر حية مشحونة بعواطف الخشوع والتذلل والتخاضع لله رب العالمين . . وذلك ما يتحقق على أتم صورة وأكملها فى حالات العسرة وأوقات الضيق والشدة . فى هذه الأوقات ينخلع المرء جملةً عن كل ما كان يشغله عن الله سبحانه وتعالى حتى ولو كان قبل ذلك من العصاة أو المنافقين . . يقول الله سبحانه وتعالى فى شأن هؤلاء الذين يعرفون الله فى الشدة ولا يتعرفون إليه فى الرخاء : « أَمَّنْ ينجّيكم فى ظلمات البر والبحر ،

تدعونه تضرعا وخُفيةً لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، قل الله ينجّيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » ففى قوله سبحانه: «تضرعا وخفية » تصوير لواقع هؤلاء الذين يَذْهلون عن ذكر الله حتى إذا كَرَبهم الكرب صحوْا من سكرتهم وأفاقوا من غفلتهم وذكروا ربهم ذكراً خالصاً خاشعاً مخلصاً !! ثم إذا استجاب الله لهم، وصرف عنهم ما نزل بهم عادوا إلى ما كانوا فيه من إقبــــال على لهو الحياة وتشاغل بمتاعها .. ويقول سبحانه وتعالى فى حال مماثلة لهذه الحال: « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجَرَين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أُحيط بهم دعو الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين .. فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق».. هكذا الإنسان «إن الإنسان لظلوم كفار ا»

ونعود إلى دعوة المضطر فنجد أنها تنطلق من قلب يخفق خفقات الضراعة والخضوع لله وحده ، فإذا هى مُجَاجة الإخلاص ، ونضيح الاستسلام ، ثم إذا هى خَلْق سَوِيّ ذو أجنحة قوية ترتفع به إلى حيث يقبل الدعاء ويستجاب !

وحال الاضطرار هذا يستطيع المرء أن يخلقه فى نفسه ، وأن يتلبس به فى كل موقف يقفه أمام ربه . . فنحن أبداً فى حاجة إلى الله .. نرجو رحمته ، ونخشى عذابه .. والخشية والرجاء بابان يقف

أمامهما المرء وقفة التذلل ، والتخاضع لله ، والتذلل والتخاضع مظهر من مظاهر الاضطرار وصورة من صوره !

* * *

ونستطيع بعد هذا أن نقول إن إجابة الدعاء أو رَدَّه يرجع إلى الداعي وإلى الحال النفسية التي يكون عليها من إيمان قلب ، وخلوص نية ، وخشوع واستسلام لله .

إن «الداعي» هو جهاز الإرسال الذي عنه تصدر الكلمات مترجمة عن إيمان قلب وخلوص نية ، فإذا لم يكن الجهاز سليما في جميع أجزائه وعناصره خرجت الكلمات مضطربة تضل طريقها إلى منازل الاستجابة والقبول .. فليتحسس الداعي نفسه أولا وليختبر جهاز الإرسال عنده — وهو القلب — فإن اطمأن إلى سلامة قلبه وخلوه من الدَّغَل والزيف ، وإلى نقاء ضميره وثبات يقينه فله بعد هذا أن يدعو وأن يرجو الإجابة والقبول . . ثم ليعلم أن إجابة دعائه ليس معناه في أن يتحقق له ما يدعو على الصورة التي يدعو بها . . فقد يقع له ما يدعو به على النحو الذي طلب ، وقد يُصْرف عنه من السوء مثلُ ما دعا ، وقد يُدّخر له جزاء دعائه ليوم الحساب . . فالدعاء مجاب على أي وجه من هذه الوجوه الثلاثة ، ذلك ما يجب أن يتأكد في قلب الداعي وينزل منه منزلة الإيمان واليقين .

وأمر آخر .. وهو ألا يعجل الداعي ، ولا ييأس إن أبطأت

الإجابة، فقد يكون ذلك خيراً له، بل هو الخير لاشك فيه.. وإن من تمام الإيمان ألا يمسك المرء عن الدعاء إذا لم يتحقق له ما يدعو به فإن هذا اليأس يأس من رحمة الله، وشك في قدرته.. ومن يئس من رَوْح الله أوشك في قدرته فقد كفر به: «إنه لاييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون»

الفصل السادس

أدعية مختارة

قلنا إنه ليس للدعاء صيغة أو صيغ خاصة يلتزمها المرء، وقلنا إنه ربما كان من الأوفق في باب الدعاء أن يدعو المرء بما يفتح الله به عليه مما تشتمل عليه مشاعره ويخفق به قلبه، فذلك هو الذي يبعث في الدعاء حرارة وقوة تنطلق به إلى منازل القبول..

وقد يعجز المرء عن الإفصاح عما يجري في خاطره من معان يريد أن يصورها في صورة دعاء يدعو به، وهنا فلا بأس من أن يتخير الداعي من مأثور الدعاء ما يناسب الحال التي يتوجه إلى الله بالدعاء فيها، على أن يوقظ وجدانه وينبه شعوره للمعاني التي يتضمنها الدعاء، ويمزج نفسه بها حتى لكأنها من نتاج عقله ووحي تفكيره.

والقرآن الكريم فيه الصورة الكاملة لما ينبغي أن ندعو به لخير الدنيا والآخرة.. فقد ضمت آيات الكتاب على مواقف اتجه فيها أنبياء الله ورسله الكرام إلى الله سبحانه وتعالى يرجون رحمته

وعونه وفضله ، كما تضمنت آيات الكتاب كذلك أدعية وابتهالات وتسابيح أجراها الله سبحانه وتعالى على ألسنة عباده المؤمنين. وقد أشرنا من قبل إلى مادعا به بعض أنبياء الله ربهم .. فى السراء والضراء . . ولا بأس من أن نشير إلى بعض ما ورد فى الكتاب الكريم من هذا الدعاء . .

فمن ذلك دعاء نوح عليه السلام . . « رب اغفر لى ولوالدىَّ ، ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات »

ودعاء إبراهيم عليه السلام : « رب هب لى حكما ، وألحقنى بالصالحين ، واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ، واجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبى إنه كان من الضالين ، ولا تخزنى يوم يبعثون» « رب اجعل هذا البلد آمنا واجنُبْنِى وبنىَّ أن نعبد الأصنام »

ودعاء موسى : رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلُل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى، هرون أخى . . .

ودعاء أيوب . . «وأيوب إذ نادى ربه : أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين» ودعاء زكريا . . « رب إنى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا . . وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . . »

ودعاء يونس: « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر

عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . »

ودعاء يوسف : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ».. « رب . السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرفْ عنى كيدهن أصْبُ إليهن وأكن من الجاهلين . »

وهكذا كان لكل نبي مناجاته وابتهالاته إلى ربه . . ويلاحظ أن مايدعو به أنبياء الله يكاد ينحصر فى المضمون العام لرسالاتهم وما يتصل بها . . وإذا كان لأحدهم دعاء يتصل بخاصة نفسه وأهله فهو دعاء يعين على طاعة الله ، ويدنى من رحمته . . أو دعاء يكشف الضر أو يرزق الولد ، أو يكثر الخير . . وحاشا أن يكون فى دعاء أنبياء الله ما يغذى شهوات النفس ، أو يترضى أهواءها . . ولهذا كان من أدب الدعاء ألا يدعو المرء إلا بما فيه صلاح دينه ودنياه ، . . وألا يدعو بما يخرج على سنن الكون ونظام الحياة ، كأن يدعو بأن يمسك القمر بيديه أو يزيل الجبال عن مواضعها . . وقد فُسرّ قوله تعالى : « إنه لايحب المعتدين » أن من العدوان فى الدعاء أن يسأل المرء ما لا يليق . . وقد روى أبو داود فى سننه من حديث حماد بن سلمة عن أبى سعيد الخدرى عن

معاوية أن عبد الله بن معقل سمع ابنه يقول : « اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها »فقال : يابنى سل الله الجنة وتعوذ من النار ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنه سيكون فى هذه الأمة قوم يَعْتَدُون فى الطَّهور والدعاء » . . وعلى هذا فالاعتداء فى الدعاء تارة يكون بأن يسأل المرء مالا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات ، وتارة بأن يسأل مالا يفعله الله مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب . . . . »

هذا ، والمأثور من دعاء سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ثروة ثمينة من روائع الحكمة والأدب فى مقام الألوهية . . كما أنه مرجع عتيد فى دراسة شخصية الرسول والوقوف على بعض جوانبها الرحيبة . . ففى المأثور من هذا الدعاء الفصاحة والبيان ، وفيه الإيمان ، والزهد ، والرضا ، والصبر ، والحمد ، . . كل ذلك وكثير غيره فى مستوى متفرد فى منازل السموّ البشرى لم يرتفع إليه إلاّ فرد واحد من أفراد البشرية هو محمد رسول الله عليه صلوات الله وسلامه . .

ونحن نورد هنا بعضا من هذا الأدب النبوى السامى لعل فيه قدوة لمقتد ، وهداية لمهتد . .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح « اللهم إنى أسألك

العافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى .. اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، واحفظني من بين يدى ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي» .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما .. كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك ، وجميع سخطك » .

وعن ابن عمر أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين ، وغلبة العدو ، وشماتة الأعداء . »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصبح يقول : اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت وإليك النشور .. وإذا أمسى قال مثل ذلك إلا أنه يقول : وإليك المصير » . أى بدل قوله « وإليك النشور » وهذا من بلاغة الأدب النبوى حيث جعل « النشور » لدعاء الصبح الذى تنتشر فيه الكائنات بعد صحوها ، وجعل « المصير » لدعاء الليل حيث يدخل الأحياء تحت غاشية النوم .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : « اللهم اغفرلى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به مني .. اللهم اغفرلى

جَـدِّى وهزلى ، وخطئي وعمدى ، وكلّ ذلك عندى . اللهم اغفر لى ما قـدّمتُ وماأخرّت ، وماأسررت ، وماأعلنت، وماأنت أعلم به منى ، أنت المقدِّم ، وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير » .

وأخرج البخارى وأبو داود والترمذى من حديث حذيفة ابن اليمان أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان إذا هبّ من الليل كبر الله عشرا ، وحمد الله عشرا ، وقال سبحان الله وبحمده عشرا، سبحان الملك القدوس عشرا ، واستغفر الله عشرا ، وهلّل عشرا ، ثم قال : « اللهم إنى أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشرا ، ثم يستفتح الصلاة » .

وعن عائشة أيضاً ، قالت : « كان إذا استيقظ من الليل قال : « لا إله إلاّ أنت ، سبحانك اللهم،استغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خرج من بيته يقول : بسم الله،توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك من أن أضلّ أو أُضـل أو أزِلّ أو أزَل ، أو أظلم أو أظـلم ، أو أجهـل أو يُجهَـل علىّ »

وذكر أبو داود فى سننه أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم يقول : اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح

لى أبواب رحمتك » . فإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم يقول « اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا لبس ثوباً جديداً سمّاه باسمه ، عمامة أوقميصاً أو رداء ، ثم يقول : اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صُنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

وكان إذا اتجه إلى بيته قال : « الحمد لله الذى كفانى وآوانى ، والحمد لله الذى أطعمنى وسقانى ، والحمد لله الذى منّ على ، أسألك أن تجيرنى من النار » .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال يقول . اللهم أهِلّه علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله » وكان يقول أيضاً « الله أكبر ، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى ، ربنا وربك الله » .

وفى صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا ركب راحلة كبر ثلاثا ، ثم قال . سبحان الذى سخر لنا هذا وما كناله مُقْرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، ثم يقول . اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هوّن علينا السفر ، واطوِ عنّا بُعده ، اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم اصحبنا فى سفرنا ، واخْلُفْنا فى أهلنا » .

وكان إذا رجع قال : « آيبون ، تائبون إن شاء الله ، عابدون لربنا حامدون »

وفى سنن أبى داود أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله فى الركاب لركوب دابته قال : بسم الله ، . ، فإذا استوى على ظهرها قال « الحمد لله — ثلاثا — الله أكبر — ثلاثاً — ثم يقول : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون . »

وفى سنن أبى داود أيضاً أنه صلى لله عليه وسلم كان إذا ودع أصحابه فى السفر يقول لأحدهم : « استودع الله دنيك وأمانتك ، وخواتيم عملك »

وروى عن ابن ماجة أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى مايحب قال : الحمد لله ، بنعمته تتم الصالحات » وإذا رأى ما يكره قال : الحمد لله على كل حال »

وعن عبد الرحمن بن جبير أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرب إليه الطعام قال : « بسم الله ، فإذا فرغ من طعامه قال : اللهم أطعمت وسقيت ، وأغنيت وأقنيت ، وهديت وأحييت ، فلك الحمد على ما أعطيت »

هذه قطرة من فيض هذا البحر الزاخر الذى كان يتدفق من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاكراً وداعياً ، . . فقد كان صلى الله عليه وسلم — كما يقول ابن قيم الجوزيه [1] — كلامه كله فى

---

(١) كتاب زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزيه جزء / ٢ ص ٣٧

ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة. ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده. ذكراً منه له، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكراً منه له. وسكوته وصمته ذكراً منه بقلبه .. فكان ذاكراً لله فى كل أحيانه وعلى جميع أحواله، كان ذكر الله يجرى مع أنفاسه قائما وقاعداً، وعلى جنبه وفى مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته ..»

وبعد.

فإننا إذ نختم هذا البحث نعود فنؤكد أن الدعاء عبادة خالصة أياكان ما يدعو به الداعى مادام لا يخرج على ما أمر به الله من معروف وما نهى عنه من منكر.

فليكثر المرء من الدعاء .. وليفسح لنفسه باب الرجاء فى الله، وليملأ قلبه يقينا بأنه: يدعو سميعاً قريباً مجيباً .. وكما ملأ قلبه ثقة بالله ورجاء فيه فليملأ قلبه كذلك خشوعا لله وضراعة، فإنه فى حضرة ذى الجلال والإكرام. خشعت لجبروته السموات والأرض. تجلى للجبل فجعله دكا..

قال ابن عطاء: واعلم أن للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتاً. فإن وافق أركانه قوى، وإن وافق أجنحته طار فى السموات والأرض، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح.

فأركانه حضور القلب . . والرقة . . والاستكانة . . والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب .

وأجنحته الصدق ..

ومواقيته الأسحار .

وأسبابه محمد صلى الله عليه وسلم . أى الصلاة على النبى الكريم . . صلّى الله عليه وعلى آله وصحابته والتابعين .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

فهرست

الفصل السادس

دار الجيل للطباعة
١١ شارع قصر اللؤلؤة . الفجالة


Bibliotheca Alexandrina
15233228